

على الجندى

الشعراء وإنشاد الشعر



دار المعارف بمصر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشعراء

وإنشاد الشعر

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشّعراء

وإنشاد الشّعر

تأليف
علي الجندي
عميد كلية دار العلوم . جامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات البلاغية بها
سابقاً



دار المعارف بمصر

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . ع . م .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

كان النبيّ – صلى الله عليه وسلم – ينصب لحسان بن ثابت منبراً فى مسجده ، ويسمع منه ، ويقول له : «أجب عنى ! اللهم أيده برُوح القـدُس» .

* * *

مرّ الزبير بن العوّام – رضى الله عنه – بمجلس لأصحاب النبى – صلى الله عليه وسلم – وحسّان يُنشدهم ، وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره !

فقال : مالى أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيْعة [1] ! لقد كان يُنشد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيُحسن استماعه ، ويُجزل عليه ثوابه ! ولا يشتغل عنه إذا أنشده .

* * *

ومر عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – بحسّان – وهو يُنشد الشعر فى مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : أرُغاءٌ كرغاء البَكْر [2] فى مسجد الرسول ؟

فقال حسّان : دعنى عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم : لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغيِّر علىّ ذلك !

فقال عمر : صدقت !

* * *

كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يعجبه شعر الخنساء ، ويستنشدها ، ويقول : « هيه يا خُناس ، ويومئ بيده » .

---

(١) الفريعة – كجهينة : أم حسان .

(٢) البكر – بوزن بدر : الفتى من الإبل .

* * *

تغنَّ فى كل شعر أَنت قائلُه إِن الغِناءَ لهذا الشعر مِضمار

حسان بن ثابت

* * *

قيل لسعيد بن المسيب : ها هنا قوم نساك يعيبون إنشاد الشعر ، فقال : لقد نسكوا نسكًا أعجميًّا .

* * *

اسمعْه ممن قاله تَزْدَدْ به عجَباً فحسنُ الورد فى أَغصانه

الزعفرانى

* * *

يزيد على الإِنشاد حُسْناً كأَننى نفثْت به سحرًا وليس به سحرُ

البارودى

* * *

أَرْعِنى سمعَك اللطيف كعهدى بك، يَهْزُزْ عِطْفَيْكَ سَجْعُ الحمائمْ

الجندى

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقدمة

هذا كتاب صغير فى حجمه ، لكنى أستطيع أن أزعم أنه كبير فى علمه ! كما أستطيع أن أزعم — دون زهو ولا خُيَلاء — أنه فى جملته يعدّ جديداً لم أسْبَق به ! كما أستطيع أن أزعم : أنه من الطّرافة بمنزلة ، تفرض قراءته على من يقع فى يده !

وبرغم قلة صحائفه — كما قلت — لا أستحيى أن أصرّح : بأننى قد جهَدت فى جمع مادّته ، ولقيت فى تحريرها وتحبيرها عَنَتاً ورَهقاً ! فهى ليست مما عُقدت لها الأبواب ، وحفَلت بها الأسفار ، حتى يتناولها من يريدها دانيَة الثِّمار ، مذلّلة القُطوف ! ولكنّها لُمَع ، وشذَرات عزيزة المنال ، مغمورة فى ثنايا غيرها ، يسقط عليها المؤلف مصادفة ، فى أثناء قراءته كتب الأدب والتاريخ .

ولحرصى على إفادة القارئ ، وبعث تشويقه ، وترويحه بالتنقل من فنّ إلى فنن ، حرَصت على تقسيمه إلى فصول قاصدة ، كلّ فصل منها متميّز من أخيه بما احتوى عليه ، مع اتصال أسبابها ، وتشابك أنسابها !

واجتهدت أن أجعلها دراسات منهجيّة موضوعية شافية ، مدعمة بالنّصوص الشائقة ، والأمثال والشواهد الطليّة ، والموازنات المنصفة ، وأن أقوّم فيها الشعراء إنشاداً من العصر الجاهلىّ حتى يومنا هذا ، مع تجلية واجبات الإنشاد وشرائطه ، حتى يكون الشعراء — ولا سيما الشُّداة والناشئون منهم — على بيّنة وهدى ! وحتى يعرف كلُّ شاعر مكانه ، فيُريح ويستريح ، ولا ينزلق إلى ما يَغُضّ منه ، وينزل به !

وأنا واثق أنها ستقابل بالقبول ، ويجزُل بها النفع ، وتعُمّ الفائدة — إن شاء الله — والخير أردت ، ونيّة المرء خير من عمله ، « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

على الجندى

١ / ١ / ١٣٨٧ هـ
١١ / ٤ / ١٩٦٧ م



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

إنشاد الشعر

النشيد فى اللغة :

النشيد فى اللغة : رفع الصوت . وهو أيضًا : الشعر المُتناشَد بين القوم ، وجمعه : أناشيد .

واستنشده شعراً : طلب منه إنشاده ؛ فأنشده إيّاه(1) .

ويقول الخُوَارَزْمىّ (2) : النشيدُ : رَفْعُ الصّوت فى نِشْدان الضالّة – بكسر نون نشدان – ثم يستعار لرفع الصوت فى الإنشاد .

ذكره الفرغانى فى جامعه .

وأنشد أبو النصر العُتْبىّ للثعالبى :

وقَدمت والأَيامُ تُنْشِد فى الورى ... بيتاً تُجِيد نشيدَه الأَيام

* * *

الإنشاد موهبة :

الإنشاد : موهبة لها شأنها الخطير فى امتلاك أزِمَّة الآذان ، وجذب أعنَّة الحدق ، والتسلّط على ألباب المستمعين فى المحافل الحافلة ، والمقامات المشهودة ! ذلك لأنّ من طبيعة الجماهير العربيّة أن تطرب أسماعهم قبل قلوبهم ! وفى هذا يقول ابن حَيّوس – فى وصف قصائده –(3) :

إذا أُنْشِدتْ كادتْ لِفَرْط بيانها ... تَعِيها القلوبُ قبلَ وَعْى المسامع

---

(1) انظر الصحاح والقاموس ولسان العرب .

(2) شرح سقط الزند – القسم الثالث – 1082 (ط . الدار القومية) .

(3) ديوانه – 1 – 332 (ط المجمع العلمى بدمشق) .

فجعل المسامع أصلا فى وَعْى الكلام ، وأنها — فى العادة — تسبق القلوب فى الوعى والطرب .

فالموسيقى اللفظية هى بلا شك أهم وسائل الانتفاع بالأصوات فى فن الأدب ، لأن هذا الانسجام هو أكبر عامل فى الإيحاء بذلك الجزء من العاطفة ، أو الشعور الذى لا يمكن أن تحيا التجارب بغيره(١) .

ولا شك أن الأداء الشاجى ، والإلقاء المنغَّم ، والصوت العذب ، يستهويهم بادئ ذى بَدْء ، ويستحوذ على مشاعرهم أول وَهلة ، وينفث فى أعصابهم خدراً لذيذاً ، ويصرفهم عمَّا وراء الصور اللفظية : من معان وأفكار وأخيلة ، ربما كانت من النوع التَّافه ، أو العقيم ، أو الفاسد ، أو المتناقض ، أو المُحال ! وصدق الشاعر فى قوله :

إنَّ الحديثَ تَغُرّ القومَ جَلْوتُه ... حتى يغيّره بالوزن مِضْمار

فعند ذلك تستكفى بلاغته ... أَو يستمرّ به عِیٌّ وإكثار

وكأيّن من قصيدة اهتزّ الناس لسماعها عجبًا ! وترنَّحوا بها طرباً ! حتى إذا نُشرت فى صحيفة ، أو دُوّنت فى كتاب ، وقرءوها فى تُؤدة ورَوِيَّة ، زَرَوْا عليها مبنًى ومعنًى ، وعدُّوها من سقَط المتاع ! وأنكروا على أنفسهم استحسانهم لها أولا ، واتَّهموها بالغفلة والبلَه ! ولكنها روْعة الإنشاد التى تنقل السامع من عالم الوعى ، إلى عالم الطرب الموشَّى المجنَّح ، المتموّج بالنَّشوة المسكرة .

إن هذه الموسيقية اللغوية ، إنما تكون روعتها وصيغتها ، وأوزان توقيعها من اضطراب النفس فى بعض مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل أو نحوها ، فتنتزّى بكلام المتكلم من أبعد موضع فى قلبه ، حتى تنتهى به إلى الحلق ، ترسله من هناك ، وكأن ألفاظه عواطف تتغنّى(٢) !

* * *

---

(١) قواعد النقد الأدبى ٤٢ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى — ٢٢١ .

حافظ إبراهيم شاعر المحافل :

وقد كان شاعر النيل المرحوم « محمد حافظ إبراهيم » أعظم شعراء المحافل فى عصره ! فكان فى إنشائه للقصائد غالبًا ، يستحضر فى نفسه : أنه يخاطب آذان المستمعين ، ويثير فيهم الطرب الوقتى ، ويستدرّ تصفيقهم وهتافهم ، فيعتمد على موسيقى التّعبير ، ونغم الأداء ، وخلابة الصوت ، أكثر مما يعتمد على براعة الخيال ، وبداعة التصوير ، وعمق الفكرة ، ودقة المعنى ، والتأمّل الفلسفى ، وإيراد طرائف الحكم والأمثال ، فكان شعره — على فصاحته وجزالته — يلذّنا إلقاء ، ويروقنا مسموعاً ، أكثر مما يروقنا مقروءاً .

وإذا كان الكلام المنثور يزيد جمالا وروعة ، وينبُل فى الصدور ، ويحلو فى الآذان ، بإحسان مخارج الحروف ، فمن باب أولى الكلام المنظوم المنغوم أصالة !

واعتبر ذلك بما ذكروه : من أنّ الجمحىّ خطب خطبة إملاك[١] ، فأصاب فيها معانى الكلام ، وكان فى كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة !

فأجابه زيد بن على بن الحسين بكلام فى جودة كلامه ، إلاّ أنه فضَله بحسن المخرج ، والسلامة من الصفير !

وفى ذلك يقول عبد الله بن معاوية :

صحّت مخارجُها وتمّ حروفُها فله بذاك مزيّةٌ لا تُنْكَرُ

* * *

إنشاد حافظ :

وفى إنشاد حافظ يقول الأستاذ أحمد أمين[٢] . . . كان يؤثّر فى الجماهير بإلقائه ، بالقدر الذى يؤثّر فيهم بنفس شعره ! لقد كان فى نبرات صوته ، وحسن إجادته فى الإلقاء ، يلعب بعواطف السامعين ، كما يلعب بها

---

(١) الإملاك : الزواج .

(٢) مقدمة ديوان حافظ المطبعة الأميرية .

بألفاظه ومعانيه ! ومن أجل هذا يحسن ألاّ يقوّم شعر حافظ ، ومقدار أثره فى الجمهور ، بمقدار ما يقيسه قارئ لديوانه ، فهو بقراءته يفقد جزءاً كبيراً من تأثيره السحرىّ ؛ الذى كان يتركه فى نفس سامعه! ومن أجل ذلك كان يطيل الوقت فى تخيّر اللفظ الذى يحسن وقعه فى السمع ، كما يتخيَّر الانسجام ، فيتغنَّى بالبيت قبل أن يدخله فى عداد شعره ، وينصت إلى جَرْسه ، ووقعه على سمعه ، قبل أن يبدأ بإلقائه على الناس .

ويقول فيه شاعر الأقطار العربية « خليل مطران » : حافظ إبراهيم يقول الشعر فى كل مكان ، يتّفق فيه أن يخلو بنفسه . ومن عادته دخول « حديقة الأزبكيَّة » بعد الظهر طلباً للخلوة ، ولا يختلط عليه الفكر خلال الضجيج المحيط به !

ويقول : يتعب فى قرض قريضه تعب النَّحات الماهر ، فى استخراج مثال جميل من حجَره !

ويقول : حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ، ينسج على منوالها ، ويتخيَّر نفائس مفرداتها ، وأعلاق حلاها !

ويقول : إذا صبَّ البيتَ فى قالب من العروض ، أعاده نغَماً على سمعه ، مُسْتشيراً بذلك ذوقه عن طريق أذنه ، وطالما صدَقته الأذنُ بنصيحتها .

أما تغنّيه فبدوىّ ، أخذه عن الشيخ « عبد المحسن الكاظمىّ » وطريقته : أن ينطق بالكلمات ملحَّنة تلحيناً ساذَجاً : من إطالة فى الحروف المعتلَّة ، ورجفة فى القرار كرّة أربعة أنفاس ، وتُقتضَب .

ويقول : وله غرام باللفظ لا يقلّ عن غرامه بالمعنى ، وفى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظًا على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حيناً فى التصوُّر ، لم يفته الابتكار فى التصوير[١] .

وفى كلام الأستاذيْن : أحمد أمين ، وخليل مطران ، كثير من وجوه الشَّبَه ، وإذا جرّدْنا كلامهما من المجاملة ، كان الاتّفاق واقعاً منهما : على

---

(١) المجلة المصرية سنة ١٩٠٩ م .

أنّ حافظ إبراهيم من « عبيد الشعر » فى بناء قصيده وتنقيحه ، كأوْس بن حَجَر ، وزهير بن أبى سُلْمَى ، والحطيئة ، وطُفَيْل الغَنَوى — كما سمّاهم الأصمعى — وأنه من شعراء الصّنعة لاالطبع ! وأنه يستوحى الشعر من أذنه ، ومن ذهنه ، ومن محفوظه ، أكثر مما يستوحى من قلبه ، ومن واعيته الباطنة !

وحافظ نفسه يعترف بذلك فى قوله : ولو كان مطران يُعْنَى باللّفظ عنايته بالمعنى لسبقنا جميعًا ! أما أنا فأميت المعنى ، إذا لم يتفق لى لفظ رائع [١] .

ويقول فيه أستاذنا شاعر البادية المرحوم « محمد عبد المطلب » — وقد سألْته ذات مرة عن منزلة « حافظ » بين شعراء العصر — : نحن مجمعون على أن « حافظ » إذا سقط على المعنى الجيد ، فليس هناك من يسبقه فى اختيار الثوب اللائق به ! ولكن معانيه الجِياد قليلة ، وحظه من الابتكار ضئيل !

ويقول فيه عبد الرحمن صدقى [٢] : ... لقد أفدت من هذه المقارنة بين حافظ كما سمعته ، وحافظ كما قرأته : أنّ المقياس الحرىّ بأن يُؤخذ به ، ويُحتكم إليه فى تقدير شاعر النيل ، هو مقياس الشعر الخطابىّ ؛ فقد كان حافظ إبراهيم ينظم قصائده للإنشاد . ومما يروى عنه : أنه كان فى حال نظمه للقصائد ، يرفع عقيرتَه بما يرد على خاطره ؛ تحرّياً للأثر الخطابى ، فهو مطلبه الذى لم يكن يبرح ماثلا نُصْب عينه ؛ إذ كان لا يخفى عليه أن هذا قبل غيره ، هو موطن قوته ، وأن فيه سرّ فضله وميزته .

* * *

مرثية حافظ لسعد زغلول :

والدليل على أن « حافظ إبراهيم » رحمه الله ! كان يعمل للمحافل حسابًا ، وأن شعره يرتفع بإلقائه إلى منزلة لا يصل إليها حين يُقْرَأ ، وأنّ روعة الإنشاد تحجب عيوب الشعر ، وتُذهل السامعين عن رؤيتها ؛ هذه القصيدة البائية

---

(١) حياة مطران : ٣٣٥ .

(٢) مهرجان حافظ : ١٥٢ — ١٥٣ .

التى رثى بها المغفور له « سعد زغلول » زعيم ثورة سنة ١٩١٩ م، وأنشدها فى حفل الأربعين ، ومطلعها[1] :

إيهِ ياليلُ هل شَهِدتَ المُصابا كيف ينصبُّ فى النُّفوسِ انصبابا
بلِّغ المشرقيْنِ قبل انبلاجِ الصّبح أنَّ الرئيس ولَّى وغابا

وهى قصيدة طويلة حوت ألوانًا من الندب، وضُروبًا من النِّيَاحة ، تملأ المسامع طنطنة ، وجلبة ، وضوضاء ، ليس وراءها طائل يُضاف إلى الثروة العقلية ، مع خلوّها من فلسفة الحياة والموت، وسَوْق الْعبر والعظات ، وتصوير غرور الدنيا وخداعها ، ممَّا يليق بهذا الموقف ؛ كمراثى أبى تمام والمتنبي والمعرى وشوقى ، فهى شبيهة بهذا الشعر الذى يقول فيه القائل :

وما مثله إلا كفارغ بُنْدُقٍ خلىٍّ من المعنى ولكن يُفَرْقِع

أو كما يقول المعرى فى شعر ابن هانئ الأندلسىّ – وإن كان متجنِّيًا عليه – ما أشبّهه إلاّ برحًى تطحَن قُرونًا[2] .

* * *

بيت زائف !

وقد جاء فى هذه القصيدة المتقدمة بيت مُبْك مُضحك ، لم يكد يلج آذان السامعين فى هذا المشهَد التأبينىّ الحاشد – وفيهم الصّفوة المثقّفة من كل لون – حتى بَحّت حناجرهم من هتاف الاستحسان ، وطلَب الإعادة ! وأدْمَوْا أكفّهم بالتّصفيق المتتابع ، ولات حينَ هُتاف وتصفيق !

والبيت هو :

حَمَلُوه على المدافع لمّا أَعجزَ الهامَ – حَمْلُهُ – والرِّقابا

---

(١) ديوان حافظ : ٢ – ١٩٧ .

(٢) كان أبو العلاء إذا سمع شعر ابن هانئ قال : هذا القول ، وذلك لأجل القعقعة التى فى ألفاظه ، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ ! قال ابن خلكان : ولعمرى ما أنصفه فى هذا المقال، وما حمله على هذا إلا الإفراط فى تعصبه للمتنبى – وفيات الأعيان – : ٢ : ٦ – ٧ .

فلمـا ذهبت السَّكْرة ، وجاءت الفكرة — كما يقولون — وقرءوا القصيدة فى الصحف قراءة الدارس المتبصّر المتدبر ، تبيَّن لهم : أنّ البيت غاية فى الهُجْنة ! ونهاية فى السُّخْف ، وأنه ذمٌّ صريح للزعيم المرثىّ ! فهو لا يصوّر أعمال « سعد » ولا مآثره ، ولا نواحيه الوطنية الخالدة ، ولا مواهبه المعنوية المرموقة وإنما يُمثّله جسداً ضخماً طُوالا هائلا ، كجسد « عُوج بن عُوق[1] » كما تتحدث عنه الأساطير !

ولم يكن بُدٌّ أن يُحمل مثل هذا الجسم العملاق ، الخارج عن حدود المعقول على متون المدافع — كما قال — لا على متن مدفع واحد ! لأن أعناق الرجال أرقّ وأدقّ وأضعف وأعجز عن حمله !

وفى مثل هذا البيت الفاسد المعنى ؛ يقول ابن رشيق : فإن اختلّ المعنى كلّه وفسد ، بقى اللفظ مَواتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطّلاوة فى السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى رَأى العين ، إلا أنه لا يُنتفع به ، ولا يفيد فائدة[2] !

ولا ندرى كيف وقع حافظ — على ذكائه وألمعيّته ، وبصره بالنقد ، وحذقه بالنكتة — على هذا البيت الفَسْل الردىء المخشوب ؟ !

ولكن لا عجب ؛ فقد كان مستغرقـًا فى اتّخاذ الوسيلة التى يخلب بها الشّهود ، فألهاه ذلك الزخرف اللفظىّ عن صواب المعنى ! ومهما يكن ؛ فقد بلغ ما يصبو إليه ! ألم يصفّق له السامعون أكثر ممـّا صفقوا لشوقى والعقاد ؟ !

* * *

الإخلاء الشعرى :

وهكذا كل شعراء الإنشاد ؛ تبدو قصائدهم فخمة جليلة ، ذات ديباجة

---

(١) عوج بن عوق — بضمهما — : رجل ولد فى منزل آدم ، فعاش إلى زمن موسى ، وذكر من عظم خلقه شناعة ، ولا شك أنه إنسان خرافى !

(٢) العمدة : ١ — ٨٠ .

ملساء ألِقة بهيجة ، وذات معان قريبة سهلة بسيطة ،وقواف خفيفة عذبة مرنّة فاتنة !

وليس عليهم بعد ذلك ، أن تكون مغسولة من الأفكار البعيدة الغور ، والصور الطريفة التركيب ، والأخيلة الذاهبة فى السماء ؛ والعواطف المتأججة ! وهو ما يسمّونه : « الإخلاء » .

وفى ذلك يقول محمد بن سلاّم : لم يكن للأعشى بيت نادر على أفواه الناس – مع كثرة شعره – كأبيات أصحابه .

ويقول أبو حاتم : سألت الأصمعىّ عن الأعشى – أعشى بنى قيس ابن ثعلبة – أفحل هو ؟

فقال : لا . ليس بفحل !

فقلت له : ما معنى الفحل ؟

قال : يريد أنّ له مزيّة على غيره ، كمزيّة الفحل على الحِقاق[1] .

ومثل هذا يقال عن أشجع السُّلَمىّ ؛ فقد حكى عن البحترىّ : أنه قال : فاوضت ابن الجهم فى الشعر .

– وذكر أشجع السلمى – فقال : إنه كان يُخْلِى ، فلم أفهمها عنه ، وأنفت أن أسأله عنها !

فلما انصرفت فكّرت فيها ، ونظرت فى شعر أشجع ؛ فإذا هو ربّما مرّت له الأبيات مغسولة ليس فيها بيت رائع .

ويقول المرتضى : وجدت بعض من ينقد الشعر يقول : ليس فى شعر مروان بن أبى حفصة بيت يُتمثّل به غير قوله :

له خلائقُ بيضٌ لا يغيِّرها صرفُ الزمان كما لا يصدأ الذهب

قال المرتضى : ولا شك فى قلة الأمثال فى شعر مروان ، ولكن ليس إلى

(١) الحقاق – كظراف – : جمع حقة – كرقة وحق : وهى من الإبل : الداخلة فى السنة الرابعة .

هذا الحد[١] .

وإخلاء الشاعر مأخوذ من قولهم : أخلى الرامى إذا لم يصب شيئًا من رشقه كله الغرض ! فجعل ذلك قياسًا .

* * *

حافظ والعقاد وغنيم :

ونعود إلى بيت حافظ المتقدم ، فنقول: نحسبه نظر فيه إلى قول القائل[٢] :

وليس صريرُ النَّعشِ ما تسمعونه ولكنَّه أَعناقُ قوم تَقَصَّفُ

وليس فَتيقُ المسك ما تَجدونه ولكنَّه ذاك الثَّناءُ المُخلَّفُ

فخانه النظر ، وجانبه التوفيق !

على أن العقّاد — رحمه الله — قد تَوافَى معه على هذه الصورة اللفظية ، ولكن لم ينزلق إلى ما انزلق إليه من فساد المعنى !

يقول فى حفل التأبين نفسه من قصيدة مفرطة الطول[٣] :

خرج المِدْفعُ يطوِى مدفعاً الأَساطيلُ—اتَّقته—والحصونْ

ساكنا بين يَديهم بعدَما زلزلَ الشرقَ على المغتصِبين

حوْلَه من عسكر أَو عُزَّل جيشُ أَجنادٍ له مُتَّبعون

ويقول محمود غنيم فى رثاء المرحوم « محمد محمود » رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، وأحد رؤساء الوزراء السابقين :

مِدْفع خامد على مدفع سا رٍ من الوجد وارىَ الزَّفرات

فلم يقع فى مثل هذا التهافت[٤] :

---

(١) أمالى المرتضى — ٣ ، ٣٣ — ٣٤

(٢) انظر قصتهما فى أمالى القالى — ١ — ١١٢ .

(٣) ديوان من دواوين — ٢٠٧ .

(٤) صرخة فى واد — ١٨٠ .

الشعر الذى يحسن مسموعاً لا مقروءاً :

ومثل هذا الشعر الذى يحسن مسموعًا لا مقروءاً ، أو على الأصح يحسن مسموعًا أكثر مما يحسن مقروءاً ، يصوّره لنا القدامى من شعراء ونقّاد فى عبارات تختلف لفظًا ، وتكاد تتّحد معنى !

من ذلك : أن ذا الرّمة سأل الفرزدق : كيف ترى شعرى هذا يا أبا فِراس ؟ — لشعر أنشده إياه — .

فقال الفرزدق : أرى شعراً مثل بعر الصِّيران[1] ؛ إن شممت شممت رائحة طيبة ، وإن فتَتّ فتتّ عن نَتْن !

وقيل لجرير : كيف ترى شعر ذى الرُّمة ؟

قال : نُقَط عَروس ، وأبعار ظباء !

وهو كقول أبى عمرو بن العلاء فى شعر ذى الرُّمة : نقط عروس تضمحلّ عن قليل ! وأبعار ظباء لها مَشَمّ فى أول شمّها ، ثم تعود إلى أرواح البعر !

ويقول الأصمعى فى معنى : « نقط العروس وأبعار الظباء » : إن شعر ذى الرمة حلو أول ما تسمعه ، فإذا كثر إنشاده ، ضعف ، ولم يكن له حسن ؛ لأن نقط العروس ، إذا غسلتها ذهبت .

وأبعار الظباء ، أول ما تُشَمّ توجد لها رائحة ما أكلت الظباء من الشِّيح والقَيْصوم والجَثْجاث[2] والنبت الطيِّب الريح ، فإذا أدمنت شمَّه ذهبت تلك الرائحة .

ويقول المبرد : معنى نقط العروس : إنما تبقى أول يوم ، ثم تذهب ، وبعر الظباء : إذا شممته من ساعته ، وجدت منه كرائحة المسك ، فإذا غَبّ[3] ، ذهب ذلك .

---

(١) الصيران : جمع صوار — ككتاب وغراب — وهو القطيع من البقر .

(٢) الشيح : نبت معروف. والقيصوم : نبات ، وهو صنفان أنثى وذكر ، النافع منه أطرافه . والجثجاث : نبات .

(٣) غب : أغب القوم جاءهم يوماً وترك يوماً ، وفى الزيارة أن تكون كل أسبوع .

وسمع أعرابى رجلا ينشد شعراً لنفسه ؛ فقيل له : كيف تراه ؟
فقال : سكّر لا حلاوة له !

ويقول الأصمعى فى شعر لبيد : كأنّه طيلسان طبرىّ ؛ جيد الصنعة ، وليست له حلاوة .

ويقول ربيعة بن حِذار الأسدىّ فى شعر عمرو بن الأهتم : شعرك كبرود حِبَرٍ [١] يتلألأ بها البصر ، فكلّما أعيد فيها النظر ، نقص البصر!

ويقول إسحاق الموصلى : قال لى الفضل بن الربيع : يا أبا محمد ، إن من الشعر لأبياتا ، مُلْس المتون ، قليلة العيون ، إن سمعتها لم تَفكَّه لها ، وإن فقدتها لم تحتجْ لها .

وليس معنى هذا أن شعر حافظ كله من هذا النوع الذى أخلى فيه صاحبه ، أو من هذا النوع الذى تقدّم وصفه ؛ فهو أجلّ وأكبر من ذلك ؛ ولكنا نريد أن نبيّن : أنه كان — رضوان الله عليه — ينشئ القصيدة فى الأعمّ الأغلب وعيناه ناظرتان إلى الحفل الذى سينشد فيه !

ومرماه : أن يناغى بها الآذان ؛ لا ليخاطب العقول! وعذره : أنه كان ينشد شعره مع شعر شاعرين عملاقين ؛ هما « شوقى ومطران » .

وقد كان يعرف تمام المعرفة — ومثله لا تخفى عليه أقدار الرجال — أنه دون الأوّل فى كل شىء ! وأنه دون الثانى فى تجديده ، واختراعاته ، وسبحاته الخياليّة ! فكان لا بدّ له من اللجوء إلى ما نسمّيه : « البلاغة الصوتية » لينازع صاحبيْه إعجاب السامعين فى حلبة الإنشاد ، وقد كان يصل إلى ذلك دائمًا. رحم الله الجميع !

وصفوة القول : أنّ اجتماع الإنشاء الجيد ، والإنشاد الجيد ، من الفتن الكبرى للنفوس ! والخلابات العظمى للألباب ، تفعلُ بها فعل السحر ! ولقد صدق رؤبة بن العجّاج حيث يقول فى صفة شاعر :

---

(١) الحبر — كعنب — : جمع حبرة — كعنبة — وهو برديمان .

لقد خشِيت أن تكون ساحرا   راويةً مَرًّا ، ومَرًّا شاعرا

فاستعظم حاله حتى قرنه بالسحر ! .

ومن حقنا على شعراء الإنشاد ، أن يتدبروا ما قال ابن رشيق : قد قيل لكل مقام مقال ، وشعر الشاعر لنفسه ، وفى مراده ، وأمور ذاته : من مزح وغزل ومكاتبة ومجون وخمرية ، وما أشبه ذلك ، غير شعره فى قصائد الحفل الذى يقوم به بين السماطين[1] ،

إنه يقبل منه فى تلك الطرائق عفو كلامه ، وما لم يتكلف له ، ولا ألقى به بالا ، ولا يقبل منه فى هذه إلا ما كان محككاً[2] ، معاوداً فيه النظر ، جيداً لا غث فيه ولا ساقط ولا قلق[3] .

وفى مثله يقول ابن حمديس :

زِنْ بديع الكلام وَزْناً مُحَرَّرْ   مثلما يُوزن الكلامُ المُشَجَّرْ

وتكلم بما يَزينك فى الحفل   وتَقْنَى به عَلاءً ومَفْخَر

إنَّ حسن الثناء بعدك يبقَى   لك بالذكر منه عيش مُكَرّر

روحُ معناك جسمه منك لفظٌ   وعلى كل صورة يتصوَّر

فإذا ما مقال غيرك أضحى   عَرَضاً فليكُنْ مَقالُك جوهر

إنه يكفى شاعرنا «حافظاً» أن يجمع بين سلامة الديباجة وإشراقها ، وعبقرية الإنشاد ، وعبقرية الحديث ! أجل ؛ فلقد كان «حافظ» المحدث ، أبرع من حافظ الشاعر ! وليست مهارة الحديث بالشيء الهين ! فمهارة الحديث تتناول أيضًا ما للمحدث من شخصيَّة ، قد يكون أثرها أكبر وأعمق من أثر الألفاظ[4] .

---

(١) السماطان : الصفان .

(٢) المحكك : المنقح .

(٣) العمدة — ١ — ١٣٣ .

(٤) قواعد النقد الأدبى — ١٥ .

الفصل الثانى

الشعر ينشد ولا يقرأ

اللغة العربية لغة غنائية :

اللغة العربية من اللغات المُوغلة فى القدم، واللغات القديمة من سِماتها كثرة الإيقاع والتنغيم ، وهى لذلك تفوق اللغات الحديثة فوْقًا واضحًا فى الموسيقية والغناء !

ولغتنا العربية — إلى ذلك — لغة أناقة ، وزخرف ، ومبالغة ، وتهويل ، والنغم والوزن والتّطريب والرّنين ، من عناصرها الرئيسة ، وصفاتها الأصيلة !

ثم إنّ فيها من القوافى المتناسبة ، ما يتعذّر وجوده فى سائر اللغات [1]

وشعرها المشتقّ من كيانها يحمل خصائصها وميزاتها ، فهو كلام موسيقىّ منغَّم متوازن — على اختلاف بحوره وقوافيه — وهو هُتاف النفس حين تضطرم بنوازع النّشوة والألم، والسرور والحزن، والرضاء والغضب، والبسْط والقبض، والخوف والرجاء ، ينبع فى يُسْر من أعماقها سيّالاً مُتداركاً ، كأنما تجد فى تناغم ألفاظه ، وتآخى أوزانه ، ورنين أجراسه، واتّساق نبراته،وتعاطف حروفه متنفَّساً لهذا الجيَشان العنيف ! وتلطيفاً لهذه الثورة الصاخبة [2] .

ويرى «كولردج» : أن الوزن ينشأ من توازن فى العقل ناشئ عن الانفعال القهرى والمجهود الاختيارى ، ومن التوازن بين الحالين المتعارضتين : حالة التأثر الوجدانى وحالة الضبط الإرادى ، ينشأ الوزن الشعرى ، وينبغى أن تجتمع هاتان الطاقتان اجتماع تمازج واتحاد ، لا اجتماع تقارب أو جوار . وهذا الاتحاد ينتج من نفسه لغة بديعة الصور ، محركة للذهن ، مثيرة للوجدان ، ويتجلى هذا فى الشعر ، وإن كانت تبدو منه أحياناً فى النثر بعض سمات . ونبضات القلب التى تبلغ

---

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ١٤١ .

(٢) فن الأسجاع — ١ — ٩

ستًّاوسبعين نبضة في الدقيقةعند الإنسانالسليم؛قد حاول بعض الباحثين أن يربط بينها وبين وزن الشعر . ويرون صلة وثيقة بين نبضات القلب ، وما يقوم به الجهاز الصوتي ، وقدرته على النطق بعدد من المقاطع ، يعادل ثلاثة لكل نبضة قلبية . ومن الممكن الربط بين نبضات القلب،وحركات الرقص والموسيقى والغناء ، وهي فنون وثيقة الصلة بالشعر ، وكثيراً ما تتساند في المسرحيات ، وبخاصة في الأبرتات [١] .

ومن هنا كان الأصل في الشعر أن يلقى إلقاء ، وإن شئت فقل : ينشد إنشاداً : لأنه غناء ، أو بسبب من الغناء ! وكثيراً ما يوصف بأنه : سجع الحمامة ، وتغريد البلبل ، وصدح العَنْدليب ، وشَدْو الهَزار ، ورنين الوتر ، ووسْوسة الحليّ ! وحسبنا أنه لا يتحقق غناء ، لا يقوم على أساس من الشعر الخاصّي أو العامىّ ، ولا يمكن تلحين ولا تنغيم،ليس له قِوام من الوزن ! .

وكما أن الشعر غناء ، كذلك الشاعر مغن أو شبيه بالمغنىّ ، وقد كان اليونان والرومان يقولون : غنىّ ؛ لمن ينظم أو يقول شعراً !

والعرب كذلك يقولون — أو كانوا يقولون — : فلان يتغنى بفلان أو بفلانة : إذا صنع فيهما شعراً ، ومن قول ذى الرُّمة :

أُحِبّ المكانَ القَفْرَ من أَجل أَنَّنى　　به أَتغنَّى باسْمِها غير مُعْجِم

وكذا يقولون : حدا به : إذا عمل فيه شعراً ، وفى ذلك يقول المرّار الأسدى :

ولو أَنى حَدَوْت به ارْفَأَنَّت　　نَعامته وأَبصر ما يقول

(١) ديوان ابن زيدون ورسائله ١٠١ — ١٠٢ .
(٢) ارفأنت : نفرت ثم سكنت ، وضعف واسترخى ، وارفأن غضبه : زال .

الشاعر مغن :

وقلما نجد شاعراً لا يصف نفسه : بأنه مغنّ ، أو مطرِّب ، أو مُنشد ، أو مغرّد ، أو حمامة ، أو ورقاء ، أو قُمرية ، أو بلبل ، أو هزار ، أو عندليب ، أو كروان ، أو شُحرور ، وما إلى ذلك ، وبخاصة فى الشعر الحديث .

يقول ابن نمير الثقفى :

يهيّجنى الحمامُ إذا تغنَّى كما سجع الحمائم بالمراثى

ويقول المتنبى :

وما الشعرُ إلاَّ من رُواة قصائدى إذا قلتُ شعرًا أَصبح الدهر مُنْشِدا
فسار به من لا يَسير مُشَمِّرا وغنَّى به من لا يُغنِّى مُغرِّدا

ويقول ابن زيدون :

حمائم شَكْوِى صبّحتك هَوادِلًا تنوح على أَفنان آدابىَ الهُدْل[1]

ويقول ابن حَيُّوس — يصف شعره — :

يخفّ على الأَفواه فى الأَرض كلها فيشدو به شَرْبٌ ويحدو به سَفْر

ويقول ابن الخياط الدمشقى :

غرائب من أَبكار مدحٍ كأَنَّها كرائمُ من أَزهار روض فتائقُ
تشوق وتُصْبِى السّامعين كأَنَّما بها يتغنَّى مَعْبَدٌ أَو مُخارِق[2]

---

(١) الهوادل : التى تهدل ، والهديل : صوت الحمام ، أو خاص بوحشيتها . والهدل : المتدلية جمع أهدل ؛ كأحمر وحمر .

(٢) معبد : مغن مشهور فى الدولة الأموية ، ومخارق مغن مشهور فى صدر الدولة العباسية .

ويقول مهيار – يصف قصيدته فى ممدوحه – :

يَلَذُّ لها مَدُّ النَّشيد ولِينُه ويُزْهَى بها رَفْعُ الكلام وخَفْضُه

ويقول :

يُخَال بها الرّاوِى إذا قام مُنْشِدًا بما مَلَكَ الإِطراب قام مُغَرِّدا

ويقول :

عندك منها غَرِد مُطْرِبٌ وعند من عاديتَه نادبُ

ويقول صَرَّدُرّ :

تلوم على شَغَفى بالقُدود فهبنىَ ورقاءَ تَهْوَى الغصونا
سواءٌ نشيدى بهنَّ النَّسيب وتَرْجيعُها بينهنَّ اللُّحُونا

ويعدّ مهيار الديلمى أكثر شعراء العرب تشبُّثاً بذلك، فقلَّ أن تخلو له قصيدة لا يختمها بوصفه : أنه شاد أو مغرّد ، وأنها أنشودة أو أغرودة ، حتّى ليفخر فيقول :

وزفير علّمتُ منه حمامَ الدَّوْح ما كان من حنين وسجع

ومن الشعر الحديث[1] يقول البارودى – فى وصف شعره – :

إذا ما تلاه مُنشِد فى مَقامةٍ كفى القومَ ترجيعَ الغناء نَشيدُه

ويقول :

هىَ من أهازِيج الحمَام وإنَّما ضمّنتُها مدحَ الهمام الأَرْوع

---

(١) آثرنا أن نقتصر على بعض الشعراء الذين نقلوا إلى جوار الله ! .

ويقول شوقى :

يا نائحَ الطَّلْح أَشباهٌ عَوادينا نَشْجَى لواديك أَم نأْسَى لوادينا
آهاً لنا نازِحىْ أَيْكٍ بأَنْدلُسٍ وإن حَلَلْنا رفيفا من رَوابينا

ويقول :

وإنى لَطيْرُ النِّيل لا طيرَ غيرُه وما النِّيلُ إلاَّ من رياضك يُحْسَبُ(١)

ويقول :

ولقد أَقول لهاتف سحَرًا يبكى لغير نوًى ولا أَسْر
يا طير بُثَّ أَخاك ما يجرى إِنا كلانا موضع السِّرِّ

ويقول :

وهَبونى الحمام لَذَّةَ سجع أَين فضلُ الحمام فى تَحْنانه

ويقول حافظ فى شوقى :

فاصدحْ وغنِّ النيل واهُززْ عِطْفَه يَكفيه ما عنَّاه من أَحزانه(٢)

ويقول خليل مردم :

ضاق بالأَحزان ذَرْعاً فانْتحَى الروضَ النضيرْ
يَتغنَّى بنشيـــد مثل أَسْجاع الطيور

ويقول محمد عبد المطلب :

غنَّيتُ نشوانَ القريض يَهزُّنى سِدْرٌ ــ بريف جُهَيْنةٍ ــ ونَخيلُ(٣)

---

(١) يخاطب بها السلطان عبد الحميد العثمانى .
(٢) عناه ــ بالتشديد ــ : أنصبه وأتعبه من العناء .
(٣) السدر : شجر النبق . وجهينة : يريد بها جهينة الجرجاوية من أعمال مركز طهطا ، والشاعر ينسب إليها .

ويقول العقاد :

أنا أدرى يا فتاتى حين ألقى بالأغانى
أن شعرى سمعته شفتـان شفّتان

ويقول المازنى :

عجبت من مائل عنّا وإنّ لنا شِعْرًا كما سجعت فى الروض مِرْنانُ
لكل روض نضير طائر غَرِدٌ كذاك نحن حماماتٌ وبستان

ويقول الرصافى :

وكم رام إسكاتى أناسٌ أَبَى لهم خنَى الطبع إلا أَن يُرَوْا لىَ حُسَّدا
ومن عجب أَن يعشَق الروضَ بلبلٌ ويمنعه ذِبّانه أَن يُغَرِّدا[1]

ويقول الزهاوى :

إنَّنى والهَزار فَرعان من أَصل كلانا قد مارس الأَشعارا
وكلانا بثَّ الصبابة إلاَّ أَنَّنى قد أَبَنْت وهْوَ أَشارا

ويقول مصطفى صادق الرافعى :

أَلا ياعصافيرَ الرُّبا قد عشِقتُها فهُبِّى أُعَلِّمْك الهوى والبكا ! هُبِّى
أَعلِّمك النَّوْحَ الذى لو سمعتِه رَثَيْتِ لأَهل الحُبّ من شغَف الحبّ

ويقول محمد الأسمر :

أَمّا القوافى فهنا روضتُها[2] صَفا بها لطيرها مَعِينُها
غنّت بها اليومَ شَوادِيها فما أَبدعَ ما جاءَ به تَلْحينها

---

(١) ذبان – بكسر الذال وتشديد الباء – : جمع ذبابة .

(٢) روضتها : يعنى منزل المرحومة السيدة الجليلة هدى شعراوى الذى أنشدت به القصيدة .

«أَطيار شوقى» فى رُباها اتَّفقت قلوبُها واختلفت لُحونها
مُغَرِّد وصادح وساجع لكلّ شادٍ نغمةٌ يُبِينُها

ويقول الشرنوبى :

أَنا ماضٍ فلا تَخِفُّو لقبرى لا ، ولا تُزْعجوا سكون رُفاتى
حَطِّموا مِزْهرى وذُرُّوا بقايا ه وصَلُّوا فى مأْتم الذكريات

ومن النثر قول المنفلوطى : وهل بكاء الحمام إلا شعر ، لأنه يمثل فجعة البين ، ولوعة الفراق(١) !

ولعل أجمل وأبلغ ما جاء فى تصوير الشاعر : أنه لا يختلف شيئاً عن طيور الغـرَد والسجع والصُّداح ، تلك الأبيات التى قالها ابن لؤلؤ الذهبى ، والتى انتهى فيها إلى تفضيل الشاعر على الورقاء فى جواه وأساه ، وبكائه ونُواحه ! قال :

وتنَبَّهتْ ذاتُ الجَناح بسُحْرةٍ بالواديْين فنبّهتْ أَشواقى
ورقاء قد أَخذتْ فنونَ الحزن عن يعقوبَ والأَلحانَ عن إسحاق(٢)
قامت تُطارحنى الغرامَ جَهالةً من دون صَحْبى بالحمى ورِفاقى
أَنَّى تُبارينى جَوًى وصبابةً وكآبةً وأَسًى وفيضَ مآقى
وأَنا الذى أُمْلى الهوى من خاطِرى وهِىَ التى تُمْلى من الأَوراق(٣)

ومثل ما تقدم فى جماله ورونقه، ولطفه قول أبى فراس الحمدانى — وقد

---

(١) النظرات — ٣ — ٣١١ .
(٢) يعقوب : يعقوب النبى — عليه السلام ! — وإسحاق : هو إسحاق الموصلى المغنى المشهور.
(٣) فى الأوراق تورية لا تخفى .

سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية[1] :

أَقول وقد ناحتْ بقُرْبى حمامةٌ ... أَيا جارتى هل تشعرين بحالى
معاذَ الهوى ما ذُقْتِ طارِقةَ الهوى ... ولا خطرَتْ منك الهمومُ ببالى
أَتحمِل محزونَ الفؤاد قَوادمٌ ... على غُصُنٍ نائى المسافةِ عالى
أَيا جارتا ما أَنصف الدهرُ بيننَا ... تعالىْ أُقاسِمْكِ الهمومَ تعالِى
تَعالىْ ترَىْ رُوحاً لدىَّ ضعيفةً ... تَرَدَّدُ فى جسم – يُعَذَّب – بالى
أَيضحك مأْسورٌ وتبكى طليقةٌ ... ويسكت محزونٌ ويندبُ سالى
لقد كنتُ أَولَى منكِ بالدمع مقْلةً ... ولكنَّ دمعى فى الحوادث غالى

* * *

الإنشاد فى العصر الحديث :

كان للإنشاد مكانة عالية فى العصر الذى عاش فيه إسماعيل صبرى وحفنى ناصف ، والثالوث الشعرى المرموق : « شوقى وحافظ ومطران » والعقاد ومحرم والكاشف وعبد الحليم المصرى والجارم ومن إليهم ، وهو جيل سابق لجيلنا.

وقد بلغ من سيطرة الشعر على النفوس – فى هذا العهد – وحبّ الناس لسماعه من أفواه منشئيه ، أننا كنا – ونحن طلبة – نقطع المسافات البعيدة ؛ لنرى هؤلاء الشعراء ونستمتع بإنشادهم ، مع علمنا : أن قصائدهم ستنشر فى الصحف السيارة ، والمجلات الأدبية !

وأذكر : أنه فى حفل تأبين أستاذنا شاعر البادية «محمد عبد المطلب» – وكان فى قاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة – اشتد الزحام ، حتى إن الشاعر « خليل مطران » – وكان أحد المؤبِّنين – لم يستطع الوصول إلى مكان الإلقاء !

وقد ساعد على ازدهار الإنشاد فى هذه الأيام ، كثرة النوادى السياسية

---

(١) يتيمة الدهر – ١ – ٥٣ – ٥٤ وانظر ديوانه .

الحزبية ، والنوادى الأدبية ، وبيوت بعض سَراة المصريين ، الذين يحبون الأدب والشعر ، ويحتضنون أهله — وقد كانوا هم أدباء — وشبيهُ الشيء منجذب إليه !

كما ساعد عليه أيضاً ؛ حفلات التكريم والتأبين التى كانت تقام بكثرة فى هذا العهد ؛ فقلّما كان يرتقى موظف إلى درجة لامعة ، أو ينعم على إنسان برتبة أو وسام أو ينتقل إلى وظيفة فى الخارج ، أو يحال على التقاعد ، أو يرحل إلى الدار الآخرة ، إلا أقيم له حفل شائق يتبارى فيه كبار الشعراء من خُلصائه وأصفيائه! كما ساعد عليه كذلك ؛ احتفال الصحف بنشره ؛ فكان لكل صحيفة صفحة أدبية خاصة بها ، يكتب فيها الأدباء اللامعون ، والشعراء النابهون ! وكانت هذه الصفحات المشرقة أشبه بمدارس أدبية ، تخرَّج فيها كثير من الأدباء والشعراء المعاصرين ! بل كان لكل شاعر صحيفة تعنى بإنتاجه وتقدمه للقراء ، فلشوقى ومطران مثلا الأهرام ، ولحافظ المقطم وهكذا .

وقد كان لذلك أثره فى نباهة شعراء الجيل الماضى ، وجلالتهم فى نفوس أهله ، فجُلّ شعر شوقى ، وكل شعر حافظ ومطران تقريباً ، سمع فى المحافل أوّلا ، ثم قرئ فى الصحف ثانياً ، فبنوا مجدهم الأدبى لبنة لبنة ، وحازوا فخرهم يوماً بعد يوم ، فحفظ الناس أسماءهم ، وارتفعت منزلتهم ، وطارت شهرتهم على مدى هذا الزمن المتطاول !

وأما نحن الخلف لهم ، فلم تتح لنا هذه الوسيلة ؛ لأننا ننشر آثارنا جملة فى دواوين ، لا تَفاريق فى صحائف ! فلا يكاد يعرفنا إلا صفوة المثقفين الذين يعنون بالأدب ، وقليل ما هم ! وفرق بين شاعر يصافح اسمه وشعره الآذان ، ويطالع العيون فى أحيان متقاربة راتبة ، وبين شاعر لا يُقرأ له إلا بعد الأمد المستطيل !

ثم أعقبت ذلك الازدهار ، فترة تراجع فيها إنشاد الشعر بموت زعمائه ! واكتفى عشاقه بمطالعته فى الصحف والمجلات ، ثم كفت الصحف عن نشره

كذلك بتغلب النزعة الخبرّية عليها !

ثم شاء الله أن يزدهر الإنشاد مرة أخرى ، بقيام ندوات خاصة للشعر فى الجمعيات الدينية ؛ كجمعية الشبان المسلمين ،والشبان المسيحية ، والجمعيات الأدبية ؛ كاتحاد الأدباء ،وندوة ناجى ، و رابطة الأدب الحديث وغيرها ،وعناية المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، بإقامة مهارج شعرية سنوية فى مصر وشقيقاتها العربيات ؛كما كان للإذاعة و بخاصة البرنامج الثانى أثر حميد فى ذلك .

* * *

الوعى الشعرى فى الشقيقات العربيات :

ومن الإنصاف أن نذكر : أن الوعى الشعرى فى البلاد العربية ، والتحمس لإنشاده ، أقوى منه فى مصر ، ويمكننا أن نعرف ذلك إذا عرفنا : أن متوسط من كان يحضر المهرجان الشعرى الذى عقد بدمشق الفيحاء سنة ١٩٥٨ م يومياًّ نحو سبعة آلاف غير الجالسين على الأرض ، والواقفين بين الصفوف ، وعلى الجوانب ، والمتعلقين بالأسوار ، وأعمدة النور ، وأغصان الأشجار ، وغير المستمعين فى الخارج ولا يحصى عددهم !

وقد بلغ من حضر المهرجان فى الليلة الختامية عدداً ضخماً ، قدّر بثلاثة عشر ألفا ، بل بخمسة عشر ألفا ، وكان نصف الحضور على الأقل فى كل ليلة من الجنس اللطيف :ما بين سيدة شمطاء ، وسيدة نَصَف ،أو فتاة فى طراءة السنّ ، أو كاعب مُعْصِر ! بل إنّ جريدة « الوحدة » قدرت عددهن بضعف عدد الرجال !

وقد رأيت من الحضور شيوخاً هَرْمى ، يتوكئون على العصا ، أو يستندون إلى أذرع أبنائهم ! ونساء عجائز يمشين وئيداً مترفّقات ! ومن هؤلاء من وقف متحاملا على نفسه ، فى جو بارد كالسّياط اللاذعة حتى انتهاء الحفلة !

وقد وقفت سيدة جليلة من أسرة القوّتْلى ثلاث ساعات كاملة تسمع ولا تملّ ولا تتململ !

ومن الغريب أن هذا الحشد الحاشد ؛ يبدأ فى التفرّق حين ينتهى دور الأدب والشعر ، ويبدأ دور الغناء؛ بعكس ما يحدث عندنا فى القاهرة تماماً[١] .

ونود أن نقول : إنه لا عجب أن يسمَّى الشعر غناء ، والشاعر مغنِّياً ، فالشعر والغناء توءمان : الشعر ألفاظ موسيقية ، والغناء ألحان موسيقية ، والشاعر مطرِّب ، والمغنّى مطرب !

وفى ذلك يقول عبد الله بن يحيى[٢] : كانت العرب تغنى « النَّصْب » وتمد أصواتها بالنشيد ، وتزن الشعر بالغناء ، ولهذا قال حسان :

تَغنَّ فى كلّ شِعرٍ أنت قائلُه إنَّ الغناءَ لهذا الشعر مِضْمارُ

والموسيقيون يستعملون الصور كالشعراء ، ولا فرق بينهما إلاّ أن هذه الصورة الموسيقية أصبحت محققة ، بعد أن كانت خيالية فى الشعر ؛ فطريقة الموسيقى هى عين طريقة الشاعر ؛ فيخاطب هذا الأخير القلب ، ولكن الموسيقى تمس الأذن ، وصورة الشاعر ليست إلاّ إدراكاً ، وأما صورة الموسيقى فإنها إدراك محقق ؛ فأحدهما يمنحنا فكرة الإحساس ، والآخر يعطينا الإحساس نفسه ؛ فمبلغ القول إذاً : أن اللغة الموسيقية حقيقة ، ولغة أهل الأدب خيالية .

وحين استقلَّت الموسيقى بنفسها ، وتمّ تمامها ، لم تستغن عن الشعر ، فاتَّخذت منه صاحباً وقريناً ، ونعم القرين !

وقد كان الشعر العربىّ فى أوّليته حُداء للإبل ، وكان الشعر اليونانى والرومانى يُتغنى به وينشد للآلهة !

وكان بعض الشعراء على الأقلّ ، يلقى شعره على نحو من الترنم والتَّطريب والتَّلحين الفطرى ، ونذكر بذلك « هوميروس » صاحب « الإلياذة » الذى كان يلقى شعره فى ظل « القيثارة » حين يقتصّ أخبار الأبطال .

وجماعة « التروبادور » فى القرون الوسطى .

---

(١) راجع الوعى الأدبى فى دمشق ص ٣٤ من خمسة أيام فى دمشق .

(٢) الموشح — ٤٠ .

والأعشى فى العصر الجاهلىّ .

و « الكاظمى » و « بولس غانم » فى العصر الحديث .

وشعراء الرّبابة الذين يغنّون عليها أقاصيص « الزير سالم » و « كليب» و « جسّاس » و « الجروهجرس » و « حسن بن سرحان » وأخته « الجازية » و « أبى ريَّا الأسمر سلامة » أو « أبى زيد الهلالى » و « دياب الخيل ولد ابن غانم » و « أبى دوابة الخفاجى عامر» و « أبى سعدى الزناتى خليفة » و « يونس العجبان » وأخويه « يحيى ومرعى » و « السَّفيرة عزيزة بنت معبد السلطان » إلى غير ذلك من أبطال و بطلات الأساطير !

ونحن إذا سمعنا هذه القصص مجردة من الغناء ، لن نجد لها طعماً ، ولم نحسّ لها مذاقًا !

هذا إلى أن الغناء بالشعر يبيّن ما عسى أن يكون فيه من عيب عروضى كان خافيًا ؛ يقول محمد بن سلام : لم يُقْوِ أحد من الطبقة الأولى ، ولا من أشباههم إلا النابغة فى بيتين من قصيدته التى أولها :

من آل ميّةَ رائحٌ أَو مُغْتدِى عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوَّد

وهما قوله :

زعَم البوارحُ أَنَّ رِحْلتَنا غدًا وبذاك خبّرنا الغرابُ الأَسودُ[١]

وقوله :

سَقط النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه فتناولتْه واتَّقتْنا باليد[٢]

بمخضَّب رَخْص كأَنَّ بنانَه عَنَمٌ يكاد من اللطافة يعقد

فلما قدم المدينة عيب عليه ذلك ، فلم يأبه له حتى أسمعوه إيَّاه فى غناء

---

(١) البوارح : ما مر من ميامنك إلى مياسرك ،وهى شؤم عندهم ضد السوانح .

(٢) النصيف – كأمير – : الخمار ، والعمامة ، وكل ما غطى الرأس ، ومن البرد : ما له لونان .

— وأهل القرى ألطف نظراً من أهل البدو ، وكانوا يكتبون لجوارهم أهل الكتاب — فقالوا للجارية : إذا صرت إلى القافية فرتّلي .

فلما قالت « الغرابُ الأسودُ » بالرفع ، علم فانتبه فلم يعد فيه ! وقال : قدمت الحجاز وفى شعرى ضَعة ، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس !

والحق : أن القارئ الآخذ بحظ من الأدب ، لا تكاد تُمتعه قراءة الشعر إلاّ بصوت مسموع ، ليشرك أذنه مع قلبه فى هذه البهجة الفائقة ! على أن الشاعر — كما أعرف من تجاربى وتجارب غيرى — إذا استعصى عليه الاسترسال فى قرض الشعر ، شرع فى التغنّى والترنّم ؛ فسرعان ما تهتزّ نفسه من داخلها ، فيتدفق عليه القول ! ومثل ذلك يحدث له إذا استمع إلى أغنية يحبها ، أو موسيقى يستريح إليها ! ولهذا قيل : مِقْوَد الشعر : الغناء !

وحكى عن أبى الطيب المتنبى : أن مُتَشرفاً تشرّف عليه[1] — وهو يصنع قصيدته التى أولها — :

جَلَلاً كما بى فَلْيَكُ التَّبْريحُ   أَغِذاءُ ذا الرَّشأ الأَغنِّ الشّيحُ[2]

وهو يتغنّى ويصنع . فإذا توقّف بعض التوقف ، رجع بالإنشاد من أول القصيدة إلى حيث انتهت !

ومعنى ذلك : أن الشعر غناء ، ويهتاجه الغناء !

---

(١) التشرف على الشىء : الاطلاع عليه من فوق .

(٢) الجلل هنا : الأمر العظيم ، وهو خبر يكن مقدم . والتبريح : الجهد والأذى وتوهج الشوق. والشيح : نبات معروف . والاستفهام للنفى : أى ليس غذاء هذا الرشأ الأغن — يريد المحبوبة الجميلة — من الشيح كسائر غزلان البوادى ، وإنما يتغذى بمهج عاشقيه ! .

الفصل الثالث

إنشاد الشاعر شعره

وكما أن الأصل فى الشعر أن يُنشَد إنشاداً ، كذلك الأصل أن ينشده صاحبه بنفسه ، إذا لم يكن هناك سبب يمنعه من إلقائه ؛ ذلك لأن القصيدة قطعة من الشاعر ، وصورة نفسه ، ونضح شعوره ، وفيض وجدانه ، وترجمان إحساسه ، ووسم تجربته !

وإذا كانوا يقولون : الأسلوب بالضرورة نفس الرجل[1] ، فما الظنّ بالأسلوب الشعرى الثائر المحتدم ، الذى ينفث الشاعر فيه كلّ عواطفه ، ويلفّ فيه كلّ فلذات كبده وقلبه !

هذا إلى أنّ الشاعر أدرى بمراعاة معانيه فى حال إنشاده ، وأعرف بما صاغه من جمل إنشائية وخبرية ؛ ترتبط بنفسه ارتباطاً وثيقاً ، وأقدر على تصوير انفعاله حين قذف ببيته ، ونقل تجربته كاملة إلى مستمعيه ، حتى كأنهم شركوه فى قرض قريضه !

بل إن الذى يتطوّع بإلقاء شعر غيره ، لا يحسن الإلقاء إلا إذا كان فاهماً لمعانيه كل الفهم ، حتى يستطيع أن يتقمص روح الشاعر ! ويتشرّب عواطفه وأحاسيسه !

وقُلْ : مثل هذا فى الغناء أيضاً ؛ فإنّ مما يُعين على إجادته ، أن يكون المغنّى واقفاً على معانى الشعر ومراميه ، محسًّا بخلجات الشاعر ، وتباريح نفسه ، ونبضات قلبه ، ووقْدة عواطفه !

وأنت تشعر بذلك تمام الشعور ، حينما تسمع معجزة الغناء « أم كلثوم » فى أدائها المونق ، وتطريبها العجيب ، وترنيمها الشائق ، وانسياقها مع المعانى قبضاً وبسطاً ، ومع الألفاظ جهراً وهمساً ، وانعطافها يَمْنة ويَسْرة كالفنن

---

(١) الذوق الأدبى — ٤٠ .

المـَرْوح المطور ، مع هزّها لرأسها ، وشدّها لمنديلها التقليدىّ ، وآهاتها المحترقة المحرقة ، وتواجدها المذهل المثير ! فيكاد يصور لك الوهم لهذا التطابق الكامل بين الكلام والأداء : أنها ليست المغنية فحسب ، بل هى الناظمة والملحنة كذلك !

وليس لله بمستنكَرٍ أَن يجمعَ العالمَ فى واحد

وقد أشار الأقدمون إلى أهمية إلقاء الشاعر شعره بصوته ؛ فمن ذلك : أن الشاعر أبا القاسم الزعفرانى ، كان يومًا فى دار الصاحب بن عباد ، فنظر جميع الخدم والحاشية عليهم ثياب الخُز وز الفاخرة الملوّنة .

وكان الصاحب مشغوفًا أن يكسوهم بها ، فاعتزل الزعفرانى ناحية ، وأخذ يكتب شعراً يطلب به من الصاحب ثياب خز أسوة بالحاشية ! فبصر به الصاحب ، فقال : علىّ به !

فاستمهله الزعفرانى ريثما يتم مكتوبه ! فأمر الصاحب بأخذ الدَّرْج[١] منه . فقام الزعفرانى ، وقال : أيد الله مولانا الصاحب :

اسمعْه ممّن قاله تَزْددْ به عَجَبًا ، فَحُسْنُ الورد فى أَغصانه[٢]

والجاحظ يقول — فى طلب شراب من بعض الخاصة — : التّاج بهىّ وهو على رأس الملك أبهى ! والياقوت حسن ، وهو فى جيد المرأة أحسن ! والشعر حسن ، وهو من فم قائله أحسن ! والشراب حسن ، وهو من عندك أحسن ، والهدية حسنة ، وهى من عندك أشرف[٣] !

والشاهد فى قوله : والشعر حسن . . .

وقال النّقاد : إن الشاعر إذا أنشد شعره ، تظهر عليه الوَجْمة[٤] ! وإذا

---

(١) الدرج — كدرب ، وسبب — : ما يكتب فيه « الفرخ » .

(٢) اليتيمة — ٣ — ١٧١ — معاهد التنصيص — ٢ — ١٥٣ .

(٣) فصول التماثيل — ٨٠ .

(٤) الوجمة — كوردة — : السكوت على غيظ ، وفعله : وجم — كوعد — وجماً و وجوماً .

أنشد لغيره لا يبالى ما حدث من استحسان أو استقباح[١] !

المراد : أنه إذا أنشد شعره ، يتحفَّظ فى إلقائه ، ويعتريه خوف وهمّ حذَر الإخفاق ! بخلاف ما إذا أنشد لغيره .

ويحدثون أن علىّ بن الخليل الشاعر . دخل إلى الرشيد — وفى يده قصّة — وكان الرشيد جالساً للنظر فى المظالم :

فلما رآه أمر بأخذ قصّته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحسن عبارة لها ! فإن رأيت أن تأذن لى فى قراءتها !

فأذن له ، فاندفع ينشد قصيدته :

يا خيرَ مَنْ وَخَدَتْ بأَرْحُلِه　　نُجُبٌ تَخُبّ بِمَهْمَه جَلْسِ[٢]
لمّا رأتك الشمسُ طالعةً　　كسفتْ بوجهك طلعةُ الشمس
تحكى خلافتُه ببهجتها　　أَنَقَ السّرور صبيحةَ العُرْس[٣]

فاستحسنها الرشيد ! وقال له : من أنت ؟ فقال : أنا علىّ بن الخليل الذى يقال فيه إنَّه : زنديق !

فضحك الرشيد ! وقال له : أنت آمن !

وأمر له بخمسة آلاف درهم ! وخُصّ به بعد ذلك ، وكثر مدحه فيه ![٤]

وكان الرشيد — لحبه للأدب ، وكلفه بالفصاحة ، وإعجابه بالكلام الجيد ، ومعرفته بأفانين القول — يطرب لإنشاد الشعر ، أكثر مما يطرب للغناء ![٥]

وكان دعبل الخزاعى محبًّا لآل البيت — عليهم السلام — كثير التعصّب

---

(١) إنباه الرواة — ١ — ٣٦٦ .

(٢) الوخد والخبب : ضرب من السير . والمهمه — كمعمل — : المفازة البعيدة ، والمنزل القفر . والجلس — كجمر — : الغليظ من الأرض .

(٣) الأنق — كسبب — : الفرح والسرور .

(٤) الأغانى « ساسى » — ج ١٣ ص ١٤ .

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية — ١ — ٥٩ .

لهم والغلوّ فيهم ! فلما دخل المأمون بغداد ، أحضره بعد أن أعطاه الأمان — وكان قد هجاه وهجا أباه الرشيد هجاء فاحشًا — فاستنشده مرثيته المشهورة فى آل البيت ، وفجيعتهم فى «كربلاء» ! وهى من جيّد شعره ، وأدلّه على صدق حبّه ، وإخلاصه لعترة نبيّه !

ولا يمكن أن يسمعها مؤمن بالله ورسوله ، ولا يحسّ اللوعة اللاذعة ، والحسرة الصادعة ! فاستعفاه دعبل ! فقال له المأمون : لا بأس عليك ! وقد رويتها ، وإنما أحببت أن أسمعها منك !

فأنشده دعبل القصيدة ، وأولها :

مدارسُ آيات خَلَتْ من تِلاوةٍ ... ومنزل وَحْيٍ مُقْفِر العَرَصاتِ[1]

لآل رسول الله بالخَيْفِ من مِنًى ... وبالبيت والتَّعريف والجمرات

ديارُ عليٍّ والحسينِ وجعفرٍ ... وحمزة والسّجاد ذى الثَّفِنات[2]

قفا نسأَل الدّارَ التى خَفَّ أَهلُها ... متى عهدُها بالصوّم والصّلوات

وأَين الأُلَى شطَّت بهم غُرْبةُ النَّوَى ... أَفانينَ فى الآفاق مفترقات

أُحِبّ قَصِيَّ الدار من أَجل حبِّهم ... وأَهجرُ فيهم أُسرتى وثِقاتى

فلما انتهى إلى قوله :

أَلم ترأَنّى مُذْ ثلاثين حِجّةً ... أَروح وأَغدُو دائمَ الحسرات

أَرى فَيْئَهم فى غيرهم مُتَقَسماً ... وأَيديهمُ من فيئهم صَفِرات

إذا وُتِرُوا مَدُّوا إلى أَهل وِترهم ... أَكُفًّا عن الأَوتار مُنْقبضات[3]

---

(١) العرصات : جمع عرصة — كجمرة — وهى كل بقعة بين الدور واسعة ، ليس فيها بناء .

(٢) الثفنات : جمع ثفنة — بفتح الثاء وكسر الفاء فيهما — وهى من البعير ركبته ، وذو الثفنات : الإمام على بن الحسين — عليهما السلام — لأن كثرة السجود أثرت فى جبهته ، وجعلت له ثفنة

(٣) الأوتار : جمع وتر ، وهو الثأر .

بنات زياد[1] فى الحِجال مصونةٌ وبنتُ رسول الله فى الفلوات

فعند ذلك بكى المأمون – رحمه الله ! – وجدّد له الأمان ، وأحسن له الصلة .

فأنت ترى المأمون مع روايته للقصيدة ، لم ير بُدًّا أن يسمعها من صاحبها ؛ لأن سماعها منه أشجى ، وأعمق تأثيراً !

ومن الشعر الحديث المليح قول المازنى ؛ من مقطوعة ، عنوانها « إنشاد الشاعر شعره » :

وأَعذب منه الشعرُ يتلوه ربُّه ويُفْرِغ فيه رُوحَه وهو يُنْشِد[2]
يُحِسُّ إذا أَجرى اللسانَ كأَنَّما لماضى شَجاه كرَّةٌ تَتَرَدَّد
كما قرَّت الأَمواجُ بعدَ نِزائها وما زالت الأَمواجُ تَرغُو وتُزْبِد[3]

ويقول أحمد الزين فى « جزيرة العرب » من قصيدة [4] :

روضُ البيان بها كم بات مُزْدهِرًا شَدْوُ البلابل فى أَفنانه عَجَبُ

والشاهد فى الشطر الثانى من البيت ، ومعناه : أن البلابل يونقنا صُداحها حينما تكون على أفنانها !

وهو ينظر إلى قول الزعفرانى المتقدم :

اسمعه ممن قاله تزددْ به عَجَبا فحسنُ الورد فى أَغصانه

---

(١) زياد : هو زياد بن أبيه الذى استلحقه معاوية بأبى سفيان مع مخالفة الشريعة لذلك ! وقد قتل الحسين وآل بيته فى زمن عبيد الله بن زياد قبحه الله ! والى العراق من قبل يزيد بن معاوية . والقصرات : أصول الأعناق : جمع قصرة – كرقبة – .

(٢) الضمير فى (منه) يعود على مكر الحسان فى البيت قبله .

(٣) النزاء : التوثب .

(٤) ديوان الزين – ٢١ .

الفصل الرابع

تهيؤ الشاعر للإنشاد

يحتاج الإنشاد من الشاعر ، أن يحتفل له بما يجعله أنيقـًا فى العيون ، مهيباً فى الصدور ، جليلا فى الأسماع ؛ ليلفت إليه الشهود حسـًّا ومعنى ، ظاهراً وباطنـًا ، وليعطفهم عليه ، ويدفع نفرتهم عنه ، وسأمهم منه !

وقد كان الشاعر فى الجاهلية — إذا أراد الهجاء ، دهن أحد شقى رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلا واحدة ؛ كما فعل لبيد بن ربيعة العامرى[1] ، حين هجا أخواله من بنى « عبس » تعصـُّبـًا لأعمامه « بنى عامر » فى حضرة النعمان ابن المنذر ملك الحيرة ، بالقصيدة التى أولها :

يا ربَّ هَيْجا هى خيرٌ من دَعَهْ ... إذ لا تزال هامتى مُقَزَّعه[2]

ثم يقول :

نحن بنى أُم البنينَ الأَربعهْ ... ونحن خير عامر بن صَعْصَعهْ

المُطعمون الجفنة المُدَعْدَعهْ ... والضاربون الهامَ تحتَ الخَيْضَعه[3]

مهلاً — أَبيتَ اللعن — لاتـأْكلمعَه ... إنَّ استَه من بَرَصٍ مُلَمَّعه[4]

يقصد زياداً العبسىّ .

وكان لبيد — إذ ذاك — غلاماً صغيراً ، فلم يكتف قومه العامريـُّون بهيئته

---

(١) أمالى المرتضى — ١ — ١٣٥ .

(٢) مقزعة : القزع — كسبب — : أن يحلق رأس الصبى ، وتترك مواضع منه متفرقة غير محلوقة ، تشبيهاً بقزع السحاب .

(٣) المدعدعة بفتح الدالين : المملوءة . والخيضعة : أصوات وقع السيوف ، والبيضة : التى تلبس على الرأس ، والغبار ؛ والقول يحتمل كل ذلك .

(٤) أبيت اللعن : قال أبو حاتم : سألت الأصمعى ؛ فقال : معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه .

المتقدّمة ، فزادوا عليها ، أن حلقوا رأسه ، وتركوا له ذؤابتيْن ، وألبسوه حُلّة ليفخّموا مرآه !

وقد كان من تأثير هذه القصيدة ، التى ألقاها هذا الصبى الشاعر العبقرىّ ، أن صرف النعمان زياداً العبسىّ عن مجالسته ومؤاكلته ، وكان من خاصّة حاشيته!

وقد أراد زياد تكذيب الصبى ، والاعتذار عن نفسه ، فلم يقبل منه النعمان ، وقال له :

قد قيل ما قيل إنْ صدقاً وإن كذباً ··· فما اعتذارك من قول إذا قيلا

ويقول الجاحظ[١] : كانت الشعراء تلبس الوشى والمقطّعات والأردية السّود ، وكل ثوب مُشهّر .

ويقول : وكان عندنا منذ خمسين عامًا شاعر يتزيّا بزىّ الماضين ، وكان له برد أسود يلبسه فى الصيف والشتاء ، فهجاه بعض الشعراء بقوله :

بِعْ بُرْدَكَ الأَسود قَبْلَ البَرْد ··· فى قَرَّة تأتيك صَمًّا ، صَرْد[٢]

ويقول : وكان لجُرُبّان[٣] قميص بشار الأعمى وجُبَّته لَبِنَتان[٤] ، فكان إذا أراد نزع شىء منهما ، أطلق الأزرار ، فسقطت الثياب على الأرض ! ولم ينزع قميصه من جهة رأسه قطّ !

ودخل العُمَانىّ الراجز على هارون الرشيد لينشده ، وعليه قلنسوة طويلة وخُفّ ساذَج !

فقال له الرشيد : يا عُمَانىّ ، إياك أن تنشدنى إلاّ وعليك عِمامة عظيمة

---

(١) البيان والتبيين – ٣ – ٣٨ .

(٢) القرة كذرة : الباردة . والصرد – : البرد .

(٣) الجربان – بضم الجيم والراء وتشديد الباء ، وفيه لغة أخرى وهى كسر الجيم والراء وتشديد الباء : جيب القميص .

(٤) لبنة القميص : بنيقته أو جربانه .

الكَوْر ، وخُفَّان دِلقَمان [١] .

فبكَر إليه من الغد — وقد تزيَّا بزىّ الأعراب — ثم أنشده وقبَّل يده ، فأعظم له الجائزة[٢] !

ودخل أبو تمام على المأمون فى زِىّ أعرابىّ،فأنشده قصيدته التى أولها :

دِمَنٌ أَلمَّ بها فقال سلام ۞ كم حَلَّ عُقْدَةَ صبره الإلمام

فجعل المأمون يتعجَّب من غريب ما يأتى به من المعانى ، ويقول : ليس هذا من معانى الأعراب !

فلما انتهى إلى قوله :

هُنَّ الحَمَامُ فإن كسرتَ عِيافةً ۞ من حائهنَّ فإنهُنَّ حِمامُ[٣]

قال المأمون : الله أكبر ! كنت يا هذا قد خلَّطت علىّ الأمرَ منذ اليوم ! وكنت حسبتك بدويًّا ، ثم تأملت شعرك ، فإذا هى معانى الحضريين ، وإذا أنت منهم !

فقصَّر به ذلك عنده !

ومن هنا نفهم : أن الخلفاء كان يروقهم أن يقف المنشدون أمامهم فى بِزّة شائقة ، وهيئة حسنة ! وأن لباس الأعراب كان محبَّباً إليهم ، أثيراً لديهم كما كان أثيراً لدى الشعراء أنفسهم ! أما إن المأمون عاب على أبى تمام ما عاب ، فلعله لم يسترح إلى هذا التناقض من شاعر ، يُنشد شعراً حضريًّا

---

(١) دلقمان : مثنى دلقم — كدرهم ، وهو دويبة كالسمور . وفى العقد الفريد « دلقان » بفتح فكسر ، وفى البيان والتبيين : « دمالقان » مثنى دمالق — بضم الدال وكسر اللام ، وهو الحجر الأملس .

(٢) عيون الأخبار — ١ — ٩٣ .

(٣) الحمام الأول — بفتح الحاء — : الحمام المعروف . والعيافة — بكسر العين — : زجر الطير كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، والحمام الثانى — بكسر الحاء — : قضاء الموت وقدره : أى إن التشاؤم والتفاؤل بحسب اعتقاد الإنسان .

خالصًا ، فى رداء بدوىّ قحّ ! إذ أن المأمون – على غزارة علمه وكثرة معارفه ، واتساع ثقافته – لا يمكن أن يضيق بالمعانى الحضرية فى أزهى عصور الحضارة العباسيّة ، وفى بغداد أم الحضارة ، وعاصمة الدنيا ، ومن شاعر حضرىّ يعدّ أستاذ الطبقة الثالثة من الشعراء الحضريّين المولّدين بعد بشار وأبى نواس .

وحين بلغ أبا تمام نعى محمد بن حُميد الطُّوسىّ[1] ، غمس طرف ردائه فى مداد ، ثم ضرب به كتفيْه وصدره ، وأنشد قصيدته المشهورة ، التى تعد من أمهات قصائد الرثاء فى الشعر العربى كله ، والتى مطلعها :

كذا فَلْيجِلَّ الخطبُ ولْيَفْدِح الأَمرُ   فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ

والتى يقول فيها :

وقد كان فوتُ الموت سَهْلاً فرده   إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلق الوَعْرُ

ونفسٌ تَعاف العارَ حتى كأَنه   هُو الكفرُ يومَ الرَّوع أَو دونَه الكفر

فأَثبتَ فى مُسْتَنْقَع الموت رجله   وقال لها :مِنْ تحت أَخْمَصِك الحَشْر

تَردَّى ثياب الموت حُمْرًا فما أَتَى   لها الليلُ إلا وهى من سُنْدسٍ خُضْرُ

وإلى ذلك أشار ابن الزّنجىّ الكاتب المغربىّ من مرثيته لابن خلدون :

لولا الحياءُ وأَن أَجىءَ بِفَعْلةٍ   تَقْضِى علىّ بها سيوفُ مَلام

وأَكون مُتَّبِعاً لأَشنع سُنةٍ   قد سنَّها قبلى «أَبو تمام»

لَلَبِسْتُ ثَوبَ الثاكلات وكنت فى   سود الوُجوه كأَنّنى من «حام»

وكان أستاذنا شاعر البادية الشيخ «محمد عبد المطلب» ، كثيراً ما ينشد شعره فى المحافل ، وقد لبس «الكوفية» و «العقال» تذكيراً بأسلافنا الأوَل ! فكان ذلك يزيد فى هيبته وجلاله ، ويجعله ملء البصائر والأبصار !

---

(١) هبة الأيام – ١٤١ .

(٢) ثياب الموت الحمر : كناية عن استشهاده ، والخضر : كناية عن دخوله الجنة .

ولا شك أن إنشاد صديقنا المجاهد البطل ، الأمير الشيخ « صقر القاسميّ » أمير « الشّارقة » المحروسة ، يروعنا تحت الكوفية والعقال ، أكثر مما يروعنا لو أنشدنا شعره الفحل الجزل مجرّدا منهما !

ولعل السرّ فى ذلك : أن « الكوفية والعقال » تترامى بأخيلتنا إلى مهد الشعر الأول — وهو جزيرة العرب — وتستحضر فى أذهاننا صور آبائنا ، وهم يتناشدون أشعارهم فى أسواق « عكاظ » و « مَجَنّة » وذى المجاز(١) ، ثم فى مِرْبد البصرة ، فى أزيائهم الأعرابية الجميلة الرائعة ، فنعيش معهم برهة من الزمان ، نسبح فى أحلام سارّة موشّاة ! والحرّ يحنّ إلى أوّليته ، حنين الشيخ إلى طفولته ، والعاشق إلى معاهد صبوته !

---

(١) عكاظ : موضع قرب الطائف . ومجنة — بوزن محبة — : موضع قرب مكة . وذو المجاز : سوق على فرسخ من عرفة .

الفصل الخامس

عادة الشعراء فى الإنشاد

للشعراء عادات فى إنشادهم عُرِفوا بها قديمًا وحديثًا !
فالخنساء كانت تهتزّ فى مشيتها ، وتنظر فى أعطافها !

صنعت ذلك حين أنشدت قصيدتها الرائية التى تقول منها :

وإن صَخْرًا لتأْتمّ الهداةُ به كأَنَّه عَلَمٌ فى رأْسه نارُ
وإن صخرًا لمولانا وسيّدُنا وإن صخرًا إذا نَشْتُو لنحّار[1]

وكان كعب بن زهير – إذا أنشد شعراً – قال لنفسه : أحسنتُ وجاوزتُ والله ، حدّ الإحسان[2] !

فيقال له : أتحلف على شعرك ؟

فيقول : نعم ! لأنّى أبصر به منكم !

وكان الكميت – إذا قال قصيدة – صنع لها خطبة فى الثناء عليها ! ويقول عند إنشادها : أىُّ علْم بين جنبىّ ؟ وأىّ لسان بين فكىّ ؟ !

* * *

وكان أبو النجم العِجْلىّ – إذا أنشد – أزبد ورمى بثيابه !

* * *

وكان بشار – إذا أراد الإنشاد – صفَّق بيديه ، وبصَق عن يمينه وشماله ! ثم يُنشد فيأتى بالعجَب !

وحكى أبو عبيدة[3] ، قال : كنت أقود بشّاراً ، فمررنا على « باهلة »

---

(١) المستطرف – ١ – ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق والرقم .

(٣) المنتخب من الكنايات – ١ – ١٤ .

فسلَّم ، فلم يردّوا السلام !

فالتفت إلىّ ، وقال : من فيهم ؟

قلت : عمرو الظَّالمى .

فنفث — وكان إذا أراد الشعر نفث — وقال :

ارفُقْ بعمرو إذا حركتَ نِسْبَتَه فإنه عربىٌّ من قوارير

إذْ جاز آباؤك الأَنذال من مُضَرٍ جازت فُلوس تِجارٍ فى الدنانير

ويكنون عن الدعىّ بقولهم : هو عربىّ من قوارير !

وكما تُشَبَّه نسبةُ الدعىّ بالزجاج ؛ لضعفه وسرعة تكسُّره ، تُشَبَّه أيضًا بالزئبق ؛ قال بعضهم :

وتَنَقُّلٌ من والدٍ فى والدٍ فكأَنَّ أُمَّك أَو أَباك الزِّئبَقُ

وكان الأصمعىّ — إذا أنشد شعراً — أتى بآخر فى معناه [1] .

* * *

وكان الطِّرمّاح بن حكيم لا يُنْشِد إلا جالساً !

وقد وفد هو والكُمَيْت بن زيد الأسدىّ ، على مخلَّد بن يزيد بن المهلب الأزدىّ !

فتقدّم الطرماح لينشد ، فقيل له : أنشدْ قائمًا !

فقال : كلا والله ! ما قَدْرُ الشعر أن أقوم له ، فيحطّ منّى بقيامى ، وأحطّ منه بضراعتى ! وهو عمود الفخر ، وبيت الذكر لمآثر العرب !

فقيل له : تنحّ !

ودُعِىَ الكميت فأنشد قائمًا ، فأمر له مخلَّد بخمسين ألف درهم !

فلما خرج الكميت شاطرها الطِّرّماح ! وقال له : أنت — أبا ضبيثة — أبعد همة ، وأنا ألطف حيلة !

* * *

---

(١) أمالى المرتضى — ٢ — ٣١ — ٣٢ (ط . الخانجى) .

وكان الفرزدق يتكبّر أن ينشد قائمًا ! قال أبو عبيدة : كان الفرزدق لا ينشد بين يدى الخلفاء والأمراء إلا قاعداً !

فدخل إلى سليمان بن عبد الملك يومًا ، فأنشده شعراً فخرَ فيه بآبائه ، وقال من جملته :

تالله ما حملتْ من ناقةٍ رجلا مثلى إذا الريحُ لفّتنى على الكُور[١]

فقال سليمان : هذا المدح لى أمْ لك ؟

قال : لى ولك يا أمير المؤمنين !

فغضب سليمان ! وقال : قم فأتمِمْ ، ولا تنشد بعده إلاّ قائمًا !

فقال الفرزدق : لا والله أو يسقط إلى الأرض أكثر شَعرى [٢] !

فقال سليمان : وَيْلى على الأحمق ! ابن الفاعلة ! — لا يكْنى ! — وارتفع صوته ! فسمع الضَّوْضاء من بالباب !

فقال سليمان : ما هذا ؟

فقيل : بنو تميم على الباب ! قالوا : لا يُنشد الفرزدق قائمًا ، وأيدينا فى مقابض سيوفنا !

قال سليمان : فليأت غداً ، ولينشدْ قاعداً[٣] .

وفى رواية : أن القصة مع يزيد بن عبد الملك لا سليمان .

وقد كان بعض الممدوحين يأمر بعض الشعراء بالجلوس ، إذا أعجب بشعره !

فقد حكى أن ابن حيّوس ، مدح مسلم بن قَرِيش صاحب حلب بقصيدة منها :

أَنت الذى نفَق الثناءُ بسوقه وجرى الندَى بعروقه قبلَ الدّم

---

(١) من قصيدة فى ديوانه — ١—٢٦٢ — ٢٦٧ والكور : لوث العمامة وإدارتها كالتكوير .

(٢) أكثر شعرى : كناية عن رأسه .

(٣) شرح نهج البلاغة ج — ١٦ — ١٢٨ — ١٢٩ .

فاهتزَّ لها ابنُ قريش وأمره بالجلوس ! فأتمها جالسًا !

ثم أجازه بألفى دينار ، وقرّبه[١] !

بل كان بعضهم يُجِل بعض الشعراء عن الإنشاد أصالة !

فقد حدّث عبد الله التميمى ؛ قال : دخل مسلم بن الوليد على الفضل بن سهل ؛ لينشده شعراً ؛ فقال له : أيها الكهل ، إنى أجلّك عن الشعر ، فسل حاجتك !

فقال مسلم : تَستَتِمّ اليد[٢] علىّ بأن تستمع ! فأنشده :

دموعُه من حِذار البين تنسكبُ ... وقلبُها مُغْرَمٌ من حَرِّ ما يجبُ

جَدَّ الرحيلُ بها عنه ففارقه ... ـ لِبَيْنها ـ اللهوُ واللذاتُ والطرب

يهوَى الرحيلَ إلى مَرْوٍ ، فيحزُنه ... فِراقُها فهو ذونَفْسَيْن يرتقب[٣]

فقال له الفضل : إنى لأجلّك عن الشعر !

فقال له : فأغننى بما أحببت !

فولاّه « الفضل » البريد بجُرْجان[٤] .

بل إن الأمير طاهر العلوى حينما قصده المتنبى ليمدحه ، التقاه مسلّما ، وأخذ بيده ، فأجلسه فى المرتبة التى كان فيها ، وجلس هو بين يديه ، ثم أنشده المتنبى قصيدته ، فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة !

ويقول على بن القاسم الكاتب : كنت حاضراً هذا المجلس ، فما رأيت ولا سمعت : أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبى الطيب !

وأول القصيدة :

---

(١) مقدمة ديوان ابن حيوس لخليل مردم — ١٨ .

(٢) اليد : النعمة .

(٣) مرو : كانت أعظم مدن خراسان ، وهما مدينتان : مرو الروز — والنسبة إليها : مروزى — والثانية : مرو الشاهجان .

(٤) معاهد التنصيص — ٢ — ١٣ .

أَعيدوا صباحى فهو عند الكواعب ‏ ‏ ‏ وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب

ومن مدحه فيها :

هو ابن رسول الله وابن وصيّه ‏ ‏ ‏ وشِبْهُهما ، شبّهت بعد التجارب

والحق : أننا لا نرى معنى لتمسّك بعض الشعراء بالإنشاد قاعداً ، متى كان قادراً على القيام ! إلا الزّهْو السخيف ، والعنجهيّة الفارغة ! وبخاصة إذا كان الإنشاد لدى خليفة من الخلفاء !

والشعر لا يصلح إنشاده من قعود ! فإنّه يذهب بكثير من بهائه وجلاله ! ولا يستطيع الشاعر مع القعود أن يُسمع الناس كما ينبغى ! كما لا يستطيع أن يفتنّ فى إلقائه ، ويكيّف إنشاده وَفْق حركاته ! !

ومثل هذا يقال فى الخطابة أيضاً .

والشاعر القديم أحقّ باللائمة ، فى التمسك بالإنشاد قاعداً ! .

فإنه كان ينشد شعره أمام الخلفاء والملوك ، وأصحاب الرياسات والأقدار ممّن يستميح جَدْواهم ، ويستجدى أعْطِياتهم بمدائحه لهم ! فهو فى طلب النّوال بالمديح أكثر ذِلّة من الإنشاد قائماً ، إن صح أن فى الإنشاد من قيام ذلة وضَعة !

ولا أرى شبيهاً لمثل هذا الشاعر ، إلا ذلك السائل التركى المنفوخ ، الذى كان يقول لمن يطلب منحة منه : حسنة وأنا سيدك ! شحّتّ سيدك ! لله يا أولاد . . .

* * *

وكان البحترى ردىء الإنشاد ، قبيح الحركات ، وكان إذا أنشد ، يختال ويعجب بما يأتى به !

وكان من عادته إذا فرغ من القصيدة ، أن يعيد البيت الأول ، وقد يعيد بيتين من أول القصيدة .

وكثير من شعراء العصر يفعل ذلك ، ولا بأس به عندى ؛ فهو استعادة لجوّ القصيدة كلها ، وربط لمقطعها بمطلعها ، وإيذان بالفراغ منها .

ويقول جَحْظة البرمكى : كان البحترى من أبغض الناس إنشاداً ! يتشادق ويتزاور فى مشيته ؛ مرة جانباً ! ومرة القهقرى !

ويهزّ رأسه مرة ! ومنكبيْه أخرى ! ويشير بكمّه ، ويقف عند كل بيت ، ويقول : أحسنت والله !

ثم يُقبل على السامعين ؛ فيقول : مالكم لا تقولون : أحسنت ؟! هذا والله ممّا لا يحسن أحد أن يقول مثله !

وإذا صحّ هذا عن البحترى — وهو صحيح — فإنّ البحترى يستحقّ الصفع على ذلك ، ولا يشفع له شعره الحسن الجميل ! فإننا لنشعر بالضّيق والحنَق والغيظ من سماع هذا الكلام ! فكيف بنا إذا رأيناه عياناً بياناً !

ويقول أبو العَنْبس الصَّيْمرىّ : كنت عند المتوكل — والبحترى ينشده قصيدته التى أولها — :

عن أىّ ثغر تَبتسِمْ　　　وبأى طَرْف تحتكمْ
حَسَنٌ يَضِنُّ بحُسْنه　　　والحسنُ أَشْبَهُ بالكرم

حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفرِ　　　المتوكِّل بن المعتصِمْ
المُجْتَدَى ابن المُجْتَدَى　　　والمُنعِم بن المُنتقِم[1]
اسْلَمْ لدين محمد　　　فإذا سلمتَ فقد سلِم

قال : فضجر المتوكل من ذلك ، وأقبل علىّ ، وقال : ألا تسمع ياصيمرىّ ما يقول ؟

فقلت : بلى ، يا سيدى ! فمرنى فيه بما أحببت !

فقال : بحياتى ! اهْجُه على هذا الروىّ الذى أنْشدنيه !

فقلت : تأمر ابن حمدون أن يكتب ما أقول !

---

(١) المجتدى — بفتح الدال — : الذى تطلب منه الجدوى ، وهى العطية . والجادى والمجتدى — بكسر الدال — من يسأل الجدوى .

فدعا بدواة وقرطاس ، وحضرنى على البديهة أن قلت أبياتاً أولها :

أَدخلتَ رأْسَك فى الرَّحِمْ وعلمت أَنَّك تنهزِمْ

ومنها :

يا بن الثَّقيلة والثَّقيل على قلوب ذَوِى النِّعَمْ

فى أَى سَلْح تَرْتطِم وبأَىّ كفّ تلتقِم

فقطع البحترى إنشاده ، وخرج يعدو !

وجعلت أصيح :

أَدخلتَ رأْسَك فى الرَّحِمْ . . . .

والمتوكل يضحك ! ويصفِّق حتى تخلَّيت عنه[1] !

وأمر المتوكل للصيمرىّ بالصلة التى للبحترىّ فى بعض الروايات .

وقد ارتاب زميلنا المرحوم الدكتور أحمد بدوى فى صحة ما يرويه الصيمرى ، كما شكّ فيما كان يفعله البحترى من حركات زريَّة فى إنشاده ، وبالغ فى الدفاع عنه !

وأرى أنه لا يمكن تكذيب ذلك ، بعد أن تطابقت الروايات الكثيرة على إيراده !

والمتوكل العباسىّ — بخاصة — كان معروفًا بالانبساط مع جلسائه فى حضرته ، وكانت فيه خفَّة وعبث ودعابة ، تجعله يتدلى فى المزاح إلى درجة تنافى وقار الخلافة ، وأبهة الملك ! .

هذا إلى أن البحترى لم يخرج عن المزاج العربى فى الفخر بشعره ، فمن شيمة العربى الفخر بمناقبه ، ومن أهمّها البيان ، وصدق قائلهم :

. . . . وأَخو المكارم بالفَعال فخور

فالعرب — كما يقول الإبشيهى — : كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعًا

---

(١) ديوان البحترى — ٨١ — معجم الأدباء — ج ١٨ ص ١٣ — ١٤ — أخبار البحترى للصولى — ٨٨ — ٨٩ — الأغانى — ١٨ — ١٧٣ .

لا تكلّفاً ، وجبلّة لا تعلّما ، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ، ولا ينبّه على مناقبهم سواهم .

ويقول الجاحظ : لولم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالَجين ، ما وُجد له طالب !

ولمّا أبدع ابن المقفع فى رسالته التى سمّاها باليتيمة ؛ تنزيهاً لها عن المِثْل ، سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها ، ولو لم ينحلْها هذا الاسم ، لكانت كسائر رسائله !

فالذى نأخذه على البحترىّ هذه الحركات المضحكة، التى تجعله سخرية السامعين فى بلاط الخليفة ، لا الفخر بشعره ، فقد كان بعض الشعراء أكثر منه فخراً ، ولم يؤخذ عليهم ذلك .

وكان المتنبي ينشد قاعداً ؛ مقلداً للطِرِمّاح والفرزدق !

كان يفعل ذلك فى بلاط الأمير الحمدانى العظيم : سيف الدولة، متقلداً سيفه !

ويقولون : إنه اشترط عليه : أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد!! ولا يكلّف تقبيل الأرض بين يديه ، فنسب إلى الجنون[1] !

* * *

وقد قال له بعض الحاضرين : — وقد أخذ ينشد قاعداً قصيدته المشهورة التى مطلعها — :

لكلّ امرئٍ من دهره ما تعودا وعادةُ سيف الدولة الطعنُ فى العِدا

لو أنشدتها قائماً لأسمعتها الناس !

فقال له المتنبي : أما سمعت أولها ؟ يعنى قوله :

لكلّ امرئ من دهره ما تعودا . . . .

يريد : أن هذه عادته ، والعادة لا تتغير !

وقد أسعفته بديهته بهذا الجواب الموفّق فى هذا الموقف الحرج ، الذى

(١) الصبح المنبى – ١ – ٢٥ .

أريد نكايته فيه ، فاستُحْسن منه ذلك ، وعُدّ من بدائعه ! مع أن الجواب غير مقنع وغير سديد ، وإن كان مسكتاً !

وصدق مَسْلَمة بن عبد الملك حيث يقول : ما شيء يُؤْتاه العبد — بعد الإيمان بالله — أحبّ إليّ من جواب حاضر ؛ فإن الجواب إذا كان بَعْدَ نظر وتفكّر لم يك بشيء ! ألم تسمع قوله — تعالى — : « ألم تَرَ إلى الّذى حاجّ إبراهيمَ فى ربّه أن آتاه الله الملك » إلى قوله : « فَبُهِتَ الذى كفر »[1] .

ولكن هذا المتكبّر المزهوّ المختال فى بلاط الأمير العربى الأريحىّ ، الذى رفع من شأنه ، وأسقط الكُلْفة معه ، وأعطاه كلّ ما يريد ، حتّى ليقول فيه من هذه القصيدة نفسها :

تركتُ السُّرَى خَلْفِى لمن قَلَّ مالُه ... وأنعلتُ أفراسى بِنُعْماك عَسْجَدا

وقيّدتُ نفسى فى ذَراك محبّةً ... ومن وجَد الإحسانَ قَيْدًا تقيّدَا[2]

إذا سأَل الإنسانُ أيّامَه الغِنَى ... وكنتَ على بُعْد جعلنْك موعدا

هذا المتكبر المزهوّ المختال حين حضر إلى مصر ، بهره البلاط المصرىّ الفاخر فى عهد كافور الإخشيدى ، فتطامنتْ نفسه ، وتواضع كبرياؤه ، وتبخرت مَخيلته ، ونسى « عادته » التى تعودها وجرى عليها واحتجّ بها ! فأنشد كافوراً قائمًا ، وأنفهُ فى الرّغام !

ويظهر أن كافوراً عجب لذلك التغيّر ، ومخالفة الرسم الذى جرى عليه هذا الشاعر فى إنشاد شعره ! فسلّط عليه من يقول له : قد طال وقوفك فى مجلس كافور ؛ ليعلم ما عنده .

فكان جوابه أكثر إمعانًا فى الضّعة والخضوع ! قال :

يَقِلّ له الوقوفُ على الرءوس ... وبَذْلُ المَكْرُماتِ من النفوس[3]

---

(١) مختارات من محاضرات الأدباء — ٣٢ — ٣٣ .

(٢) الذرا — بفتح الذال — : فناء الدار ونواحيها .

(٣) الصبح المنبى — ١ — ١١٣ — ١١٤ — التبيان للعكبرى ١ — ٣٦٤ .

وكان دعبل الخزاعى قد مدح الوزير محمد بن الملك الزيَّات ، فأنشده ما قال فيه — وهو قاعد — .

فلما فرغ من إنشاده ، أمر له بشيء يسير ! فلم يرضه دعبل فهجاه ![١]

* * *

بين الإنشاء والإنشاد :

وليس كل من ينشئ الشعر ، يحسن إنشاده ! ولله درّ عبد الله بن معاوية أو أحمد بن يوسف حيث يقول :

يُزَيِّن الشِّعرُ أَفواهاً إذا نَطقتْ بالشِّعر يوماً وقد يُزْرى بأَفواه

فبعض الشعراء يُحسنون الإنشاد ، كما يحسنون الإنشاء ، فيزيد شعرهم حُسناً وجودة ، ويكتسى ملاحة وحلاوة ، وتتضاعف منزلته حين ينشد! وفى مثل هذا يقول البارودى[٢] — يصف شعره — :

يزيد على الإنشاد حُسْناً كأَننى نَفَثْتُ به سِحْرًا وليس به سحرُ

وبعضهم يقبح إنشاؤه وإنشاده ؛ فيكون حقيقًا بقول أبى خليفة — يهجو شاعراً — :

كأَن الشعر من فيهِ إذا تمّت قوافيهِ
كنيف قد خـ . . . فيه !

وبعضهم يجيء شعره وسطاً ، ولكن يجود إنشاده ، فيرتفع شعره إلى الذّروة فى نفوس مستمعيه ، ويفوق غيره ممَّن هم أقوى منه مبنًى ، وأجمل معنى وألطف خيالا ، ويظفر من التصفيق والاستحسان بنصيب الأسد !

إن بعض أصوات الشعراء أشبه شيء بتغريد البلابل ، وبُغام الظباء ، وهى نعمة موهوبة لا يُؤَدّى شكرها لواهب المِنن ! وقد فسّر بعض العلماء قوله تعالى : « يَزيد فى الخَلْق ما يشاء » : بأنه الصوت الحسن ! وما أحسن هذا التفسير !

---

(١) معاهد التنصيص ١ — ٢٠٣ .
(٢) ديوان البارودى ١ — ١٤٥ (ط ورثته) .

وبعضها لون من خُوار البقر ، ونُهاق الحمير ، ونَغيق الغربان ، وضَغيب الأرانب ، وفحيح الأفاعى ! ومع ذلك فأصحابها أحرص الناس على الإنشاد ، لا يمنعهم من ذلك كراهة السامعين لهم ، وانصرافهم عنهم ، وسخريتهم منهم ، واستهزاؤهم بهم ، فكأنهم يريدون أن يفضحوا أنفسهم بأنفسهم ! و « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » !

ومثل هؤلاء ، بعض المُغنين قديما وحديثا ! يقول الوزير المهلبى فى المغنى القرشى :

إذا غَنّانىَ القرشى دعوت الله بالطرش
وإن أَبصرت خِلقته فيا لهفى على العمش

ويقول عبدان الخوذى فى مغنية :

لنا قينة تحمى من الشُّرب شَرْبَنا فقد أمنوا سُكْرًا وخوف خُمار
تكشِّر عن أنيابها فى غنائها فتحكى حمارًا شمَّ بولَ حمار

ويقول آخر :

إنك لو تسمع أَلحانه تلك اللواتى ليس يعدوها
لخِلت من داخل حلقومه موسوسا يخنق معتوها[١]

ويجب أن نعرف : أنه فى أعماق كل صوت جميل ، يثوى عنصر إنسانى – كما يقول بعض الفلاسفة الغربيين – فالأصوات القاسية البحاء ، تذكرنا بصوت الإنسان فى حالة الغضب ! والأصوات الرخيمة توقظ فينا معانى العطف والحب !

وقد كان الأصمعى – كما يقول الجاحظ – حسن الإنشاد والزخرفة لردىء الأخبار والأشعار ، حتى يحسن عنده القبيح ! وإن الفائدة مع ذلك قليلة !

وكان لذلك يفضُل عند الناس « أبا عبيدة » مع أنه لم يكن فى الأرض أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة !

وقد قيل لأبى نواس : قد بعثوا إلى أبى عبيدة والأصمعى ؛ ليجمعوا بينهما عند « الرشيد » .

---

(١) محاضرات الراغب ١ – ٥٥ – ٥٦ .

فقال : أما أبو عبيدة ، فإن أمكنوه من شُقَره[١] ، قرأ عليهم أساطير الأولين !

وأما الأصمعى ، فبلبل فى قفص يطربهم بنغماته !

يريد : حسن الإنشاد والزخرفة[٢] !

ويقول الربيع بن سليمان — تلميذ الشافعى : سمعت الشافعى — رضى الله عنه — يقول : ما عبر أحد من العرب ، بأحسن من عبارة الأصمعى !

* * *

وبعضهم يجود إنشاؤه إلى الغاية ، ولكنه لا يحسن الإنشاد ؛ ومثل هذا تهبط درجته عند الأوساط من المستمعين ، وإن كان يحتفظ بمكانته عند العلية من الأدباء ! وخير لمثله ألا يتولّى إنشاد شعره بنفسه ! بل يكله إلى غيره ممن يحسن ذلك ، كما كان يفعل كثير من الشعراء القدامى ، وبعض العصريين !

ومن هذا النوع الشاعر الوصّاف المفلق « ذو الرمة » صاحب « ميّة » .

يقول عصمة بن مالك الفزارى[٣] : كان ذو الرُّمة حلو العينين ، خفيف العارضيْن ، برّاق الثّنايا ، واضح الجبين ، حسن الحديث ، ولكنه إذا أنشد ، بَرْبَر ، وجَشّ صوتُه[٤] !

---

(١) شقر — بضم ففتح — : الأكاذيب .

(٢) العقد الفريد — ١ — ٢٧٦ .

(٣) ذيل النوادر والأمالى للقالى — ٣ — ١٢٤ .

(٤) البربرة : صوت المعز ، وكثرة الكلام ، والجلبة، والصياح ، وبربر فهو بربار ، ودلو بربار : لها صوت . وجش صوته : غلظ واشتد وبح .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس

الشعراء المجيدون للإنشاد

فى العصر الجاهلى :

أول شاعر عرف بحسن الإنشاد ، وذاعت له فيه شهرة ، وطار له صيت : « أعشى قيس » من قبيلة بكر بن وائل من « ربيعة » .

وقبيلة بكر : قبيلة غنيَّة بالشعراء ! وحسبك أن منها الأعشى هذا ، وطرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة اليشكرى ، وهما من أصحاب المعلقات .

وسويد بن أبى كاهل اليشكرى .

وجليلة بنت مرة زوجة كليب بن ربيعة التغلبى ، وأخت جساس بن مرة قاتل كليب !

ومرّة بن همام بن مرة .

والحارث بن عُبادة الملقب بقاضى العرب .

والمرقِّشان : الأكبر والأصغر .

وقد سمى الأعشى : صناجة العرب ! وكان معاوية بن أبى سفيان يدعوه بذلك .

وقد اختلفوا فى تعليل هذه التسمية ، فقيل :

لأنه كان يطرب إطراب العرب .

لأنه كان يتغنَّى بشعره .

لكثرة ما غنَّت العرب فى شعره .

لجودة شعره .

لحسن إنشاده ، وقد كانت العرب تقول — لمن يحسن إنشاد الشعر — هو صنَّاجة الشعر .

لحسن إنشاده وجَهارته ،وجلبة شعره ، حتى كأنك — حين تسمعه — تظن أن منشِداً آخر ، ينشد شعره معه !

لأنه أول من ذكر الصَّنْج فى شعره حيث يقول :

ومستجيبٍ تَخال الصَّنج تسمعه إذا ترجّع فيه القَيْنةُ الفُضُل[١]

* * *

فى العصر الأموى :

وقد عرف فى العصر الأموى بحسن الإنشاد « وضّاح اليمن » .

وقد كان من أجمل الناس وجهاً ، وأظرفهم وأخفّهم شعراً ! .

وهو القائل فى حسن شعره ، وحُسْن إنشاده :

عجِب الناس وقالوا : شِعرُ وضاح اليمانى
إنما شعرىَ قَنْدٌ قد خُلِطْ بجُلْجُلان[٢]

وفى رواية :

ضحك الناس وقالوا .

يريد : أن شعره فى الذوق حلو كالعسل ،الذى يخالطه حسن التصويت !

* * *

عباد العنبرى :

وقد قال له الفرزدق — مع تكبّره المفرط ، وحسده العميق للشعراء — : إنشادكُ يُزَيِّن الشعر فى فهمى !

* * *

(١) الصنج — كصبر — : شىء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار يضرب بها « معرب » والفضل — بضمتين — : المتفضل فى ثوب واحد ؛ تقوله للمرأة والرجل .

(٢) القند والقندة — بفتح فسكون — والقنديد — بكسر القاف — : عسل قصب السكر إذا جمد « معرب » .

والجلجل — بضم الجيمين — : الجرس الصغير . والجلجلان — بضم الجيمين كذلك — : الوتر شد فتله . وخلط : ساكنة الطاء ، وهو من تسكين المتحرك ، ولو حرك لاجتمع خمس محركات . وقد استشهد به سيبويه فى كتابه — العقد الفريد — ٣ — ٤٣٠ .

أبو النجم العجْلىّ الرجاز :

وقد كان من أحسن الناس إنشاداً !

وعن أبى عمر الشيبانى ، قال : قال فتيان من « عِجْل » لأبى النجم العجلى : هذا رؤبة بالمِرْبَد يجلس فيسمع شعره ، وينشد الناس ، ويجتمع إليه فتيان بنى تميم !

فقال : أو تحبون هذا ؟ .

قالوا : نعم .

قال : فأتونى بشىء من نبيذ !

فأتوْه به !

فلما رآه رؤبة أعظمه ! وقام له عن مكانه ، وقال : هذا رجَّاز العرب !

ثم سألوه أن ينشدهم فأنشدهم :

الحمد لله العلىّ الأَجْلَلِ . . . .

فلما فرغ منها — مع حسن إنشاده — قال له رؤبة : هذا أتمّ الرجز !

* * *

فى العصر العباسى :

وقد عرف فيه أبو نواس .

قيل للجاحظ : من أنشد الناس ، ومن أشعرهم ؟

فقال : الذى يقول :

كأَن ثيابَه أَطلعْن من أَزراره قمرا
يَزيدك وجهُه حُسْناً إذا ما زدتَه نظرَا
بعينٍ خالطَ التفتيرُ من أَجفانها الحَورا
ووجه سابرىٍّ لو تصوَّب ماؤُه قطَرا[١]

يعنى : أبا نواس :

---

(١) السابرى : ثوب رقيق جداً . وتصوب ماؤه : سال من عل .

* * *

محمد البيدق :

وكان رجلا حسن الصوت ، ينشد الشعر ، ويُطرب بحسن صوته أشدّ من طرب الغناء !

وقد كان فى زمن الرشيد .

ويحدّث البيدق عن نفسه قائلا : دخلت على الرشيد — وعنده الفضل بن الربيع ، ويزيد بن مزيد — وبين يديه خوان لطيف عليه رغيفان من سميذ ، ودجاجتان .

فقال لى : أنشدنى .

قال : فأنشدته قصيدة أبى منصور النّمرىّ العيْنيّة .

فلما بلغت إلى قوله :

أَى امرئ بات من هارونَ فى سَخَط   فليس بالصلوات الخمس ينتفِعُ

أَرى المكارمَ والمعروف أَوْديةً   أَحلَّك الله منها حيثُ يتسع

إِذا رفعتَ امرأً فالله يرفعه   ومَن وضعت من الأَقوام يتَّضِع

نفسى فداوك والأَبطال مُعْلَمةٌ   يومَ الوغَى والمنايا صابها فزع

فرمى الرشيد بالخِوان بين يدىّ ! وصاح : هذا والله أطيب من كل طعام ، وكل شىء !

وبعث إلى النمرىّ بسبعة آلاف دينار !

قال البيدق : فلم يعطنى النمرىّ منها ما يرضينى ، وسافر إلى « رَأى العين » فأغضبنى وأحفظنى !

فأنشدت الرشيد قوله :

ساد من الناس راتعٌ هاملْ   يعَلّلون النفوسَ بالباطلْ

تُقْتَل ذرّيةُ النبىّ وترجو   ن خلودَ الجنان للقاتل

فلما بلغت إلى قوله :

أَلا مساعِيرَ يغضبون لها بسَلّة البِيض والقَنا الذّابلْ

قال الرشيد : أراه يحرّض عليّ ! ابعثوا من يجىء برأسه !

فشفع فيه الفضل بن الربيع ، فلم يُغن كلامه شيئًا ! وتوجّه إليه رسول الرشيد . فوافاه فى اليوم الذى مات فيه ، ودفن ووُورى التّراب !

فأمر بنبشه ليحرقه ! .

فلم يزل الفضل يلطُف له حتى كفّ عنه !

* * *

أبو سعيد المخزومى :

وقد دخل إلى إسحاق بن إبراهيم المصعَبىّ ؛ فأنشده قصيدة أبدع فى إلقائها !

ثم دخل إليه أبو تمام ، فأنشده — على رداءة إنشاده — !

فقال المصعبىّ : يا أبا تمام ، لو رأيت المخزومىّ وقد أنشدنا آنفا !

فقال أبو تمام : أيها الأمير ، نشيد المخزومى يُطرِّق[1] بين يدى شعره ! وشعرى يطرّق بين يدىْ نشيدى !

* * *

وفى الأندلس :

وقد عرف فى الأندلس ابن زيدون .

وقد كان رقيق النغمة ، حلو الإنشاد ! وكان لذلك أثره فى تجميل شعره !

---

(١) يطرق — بتشديد الراء المكسورة — : أى يجعل له طريقاً ويمهد لقبوله ؛ يريد أبو تمام : أن إنشاد المخزومى أفضل من شعره فهو يشفع له ! وأن شعره — أى شعر أبى تمام — خير من إنشاده ، فهو يشفع له أيضاً !

والخلاصة : أن أبا تمام أفضل شعراً من المخزومى وأردأ إنشاداً ، والمخزومى أفضل إنشاداً وأردأ شعراً ، والحسن فى كل منهما يغطى على عيبه الآخر .

ولهذا يقول ابن حصن — يصف أشعاره، ويعرِّض بابن زيدون : بأنه يعتمد على حسن الصوت — :

ولستُ بكاسيها مدَى الدهر حِلْيةً   بنَغْمة إنشادٍ ولا بمكرّر

وهذا تحامل من ابن حصن على ابن زيدون ! فابن زيدون لا تنكر حلاوة شعره ، وجمال ديباجته ! ورقة معانيه ، حتى لقب ببحترى المغرب ! وهو حقيق بهذا اللقب !

فإذا رزق بعد هذا جمال الصوت ، وحسن التنغيم ، وملاحة الأداء ، فقد حاز النعمتين ، وجمع بين الحُسْنَيَيْن ! ولا يذم بمثل هذا ، أو يعاب عليه ، بل يمدح كما يمدح الإنسان بالأوصاف الطبيعية ، كجهارة المنظر ، وحسن الوجه ، وكمال الجسم، فبيت ابن حصن خَلْف من القول ! وقد جانبه التوفيق فيه ، وما حمله عليه إلاّ الحسد لابن زيدون على موهبة الإلقاء ، ولطافة النَّبر ، فغمطه حقه ، وبخسه مزيَّته ، وقديما قال المتنبي :

بذى الغباوة من إنشادها ضررٌ   كما تضُرّ رياحُ الورد بالجُعَل

وقال مهيار :

يُطربه البيتُ — وهو يَحْزُنه —   ومن أَنين الحمامة الطَّرَبُ

وفى معنى بيت ابن حصن ، يقول المعرى[1] :

إذا الناسُ حَلَّوْا شعرهم بنشيدهم   فدونَك منى كل حسناءَ عاطلِ
ومن كان يستدعى الجمال بحليةٍ   أَضرّ به فقدُ البُرَى والسّلاسل[2]

يقول التبريزى فى معناهما : أراد : أن قصيدته أنفذها إلى ممدوحه ، ولم ينشده إيَّاها .

---

(١) شرح سقط الزند القسم الثالث — ١٠٨١ — ١٠٨٢ — ١٠٨٣ .
(٢) البرى — بضم ففتح — : الخلاخل .

ويقول : يريد إذا زيَّن الشعراء شعرهم بالإنشاد ، فاكتف منّى بالإنشاء لأن شعرى يستغنى عن زينة الإنشاد !

ويقول البَطَلْيوسىّ : يريد: من كان شعره لا يَحسُن إلاّ بأن ينشده، فإنّ تركه الإنشاد مضرّ بشعره ، كما أن المرأة التى ليس لها جمال إلاّ بالزينة يضرها ترك الزينة ، وأما من كان شعره حسنًا بنفسه، فليس يخلّ به ألا يُحسِّنه بإنشاده ، كما أن المرأة الحسناء بنفسها ، غنيَّة عن استعمال الزينة؛ كما قال ابن الرومى :

وآنَقُ من حَلْىِ العقيلة جِيدُها وأَحسن من سِرْبالها المُتَجَرِّدُ[1]

وفرق بين قول ابن حصن وأبى العلاء : لأن أبا العلاء يفخر بحسن شعره ؛ وأنه كالغانية الغنية بجمالها الطبيعىّ عن الزينة ، فهو محض فخر . وليس فيه تعريض بأحد معيَّن ! هذا إلى أن أبا العلاء كان لا يرحل بشعره إلى الآفاق، ليمدح الرؤساء ، ويستجدى عطاياهم كابن حصن، ويزاحم غيره على أبوابهم !

ومهما يكن فقد مضى قولنا : ما دام يراد من الشعر إنشاده، فإن الإنشاد الحسن، يزيد فى حسنه إن كان حسناً، ويمنحه بعض الحسن إن كان غير حسن، وغير ذلك ضرب من التجاهل والمغالطة والمكابرة !

أما الشعر المقروء فالحكم فيه غير ذلك .

* * *

فى العصر الحديث :

وفى العصر الحديث ، عُرف جمّ غفير من الشعراء بحسن الإنشاد، منهم : حافظ إبراهيم ، ومحمد عبد المطلب ، وعلى الجارم ، وأحمد الزين ، ورمزى نظيم ، ومحمد الأسمر ، ومحمد حمام — نضّر الله ثراهم ، وتغمدهم برحمته ورضوانه ! —

---

(١) المتجرد — بفتح الراء المشددة — : مصدر بمعنى التجرد ؛ تقول : هى بضة المتجرد : أى هى بضته عند التجرد ، وإذا كسرت الراء : أردت الجسم ، وهو المراد هنا فى هذا البيت .

حافظ إبراهيم :

وقد كان « حافظ » مديد النَّفَس ، جهير الصوت، يُحسن إخراج الحروف من مخارجها ، ويعرف أين يقف ؟ وكيف يقف ؟ ومتى يجهر ؟ ومتى يهمس ؟ ويَدرى الفرق بين مواضع الخبر ، ومواضع الإنشاء !

وقد ساعده على ذلك كثرة محفوظه من التراث البليغ الفصيح ، وتدرّبه على إلقائه فى مجالسه الخاصة ، وحبّه للقاء الجماهير ، وأنسه برؤيتهم ، وتعاطفه معهم ، وعدم الإجفال منهم !

هذا إلى أنه كان كابن الخيَّاط الدمشقىّ ، يستظهر شعره كله ،ويمارس إنشاده منفرداً قبل إنشاده أمام الشهود ،ويلقيه عن ظهر قلب! كما أن أذنه الموسيقية المرهفة ، كانت خير هادٍ له على تكييف الجهْر والهمْس ،والصّعود والهبوط ! .

ومع أن صوته لم يكن ذا رنين جميل ، بل كان أجشّ غليظاً ، فقد كان قويًّا جَهْوريًّا محبَّباً ، يثير حماسة السامعين وأطربهم وانفعالهم !

وفيه يقول الأستاذ الشاعر المرحوم محمود عماد فى حفل مهرجانه[1] :

فيسحَرنا شعْره آنةً وآونةً صوتُه يسحَر
لقد قرَّ حافظُ فى صوته فما شئت تسمع أو تُبصِر
إذا ما سمعناه من خَلْفِ سِتْرٍ رأيناه ما بيَننا يخطِر
فجَهْماً غليظاً إذا جَدَّ قولٌ ونَضْرًا وسيماً متى يهدِر[2]
ولو أنهم خلّدوا صوتَه « بحاكٍ »لأَسدَوْا يداً تُشْكر
وما خَلَّدوه ولكنهم أَضاعوه فالذنب لا يُغْفَر

* * *

وقد كان العقاد — رضوان الله عليه — يقول لحافظ — حين يسمع إنشاده —: سجّل شعرك فى اسطوانات !

---

(١) ديوان عماد — ١١٧ .

(٢) هدير الحمام : صوته ، وهدر الحمام : صوت .

عبد المطلب :

وكان عبد المطلب فى شعره البدوى ، وسَمْته البدوىّ ، وصوته البدوىّ ، ولباسه البدوىّ — حين يلبس الكوفية والعقال — يخيّل إليك أنك تسمع شاعراً من الأعراب الأقْحاح ، وفد إلينا من أجواز الصحراء ! فتمتلئ منه روعة وإعجاباً !

* * *

على الجارم :

وكان الجارم أنْدى صوتًا من « حافظ » و « عبد المطلب » وأحلى نغمة ، وأعذب ترنّماً !

وكان يتخايل ويتمايل ويتزايل فى إنشاد شعره ! فكان أشبه بالممثّل منه بالمنشد ! وبخاصة فى أساليب التعجب والاستفهام ! والوقوف على مقاطع الكلام !

وكان مالكاً لنفسه ، شديد الثقة بها ، عارفاً أنه سيسيطر على السامعين بحسن أدائه ! فكان ذلك يُظْهر منه العُجْب والخيلة ! كما كان يضفى عليه شجاعة وجرأة ، فلا يتلعثم ولا يتوقّف ولا يضطرب ، كأنما ينشد لنفسه ! .

وقد ظل محتفظًا بهذه السّمات حتى أيامه الأخيرة ، وإن ضعف صوته قليلا ، وفقد بعض رنينه !

* * *

محمد الأسمر :

وقد كان الأسمر مجيداً للإلقاء ، محسنًا للأداء ، مبدعاً فى تلوين صوته ، عارفاً بمواقع الفصل والوصل ، حاذقاً فى الوقوف على حروف الروىّ !

وقد أعانه على ذلك : أنه كان يتدرّب على إلقاء ما ينشده ، وهو واقف كأنما ينشده بالفعل ، بل كان أكثر ما ينشئ الشعر وهو واقف أيضاً ، وللشعراء فى إنشائهم مذاهب !

وقد كان لأناقته الملحوظة ، وتفصيل « جبته وقفطانه » على نمط خاص ، ولوْث عمامته على شكل معيَّن ، وهزّ رأسه عقب انتهائه من كل ّ بيت ، تأثير ساحر فى النفوس ! ولا سيما نفوس الجنس اللطيف !

* * *

أبو الوفاء رمزى نظيم :

وكان أبو الوفاء محمود رمزى نظيم ، ينشد بصوت مؤثّـر ، يعرب عن وجدان دينى ، وعاطفة صوفية عميقة ، وقلب عامر ببشاشة الإيمان ! فكان لأدائه الصوتى ، المطابق لأدائه النفسىّ ، أبلغ الأثر فى السامعين !

وكان زر طربوشه الأحمر الذى كان يحافظ على لبسه دائماً ، يتحرك فى أثناء إلقائه يمنة ويسرة ؛ تحرك بندول الساعة ! كأنما يأبى إلا أن يشركه فى انفعاله العاطفى !

* * *

محمد حمام :

وكان محمد حمام فى إنشاده فكهاً ظريفًا ، مؤنسًا ممتعًا ، عذب النفس ، خفيف الروح ، لا يُـمَلّ ولا يُـسأم ، متجاوبًا مع الحضور ، كأنما يتحدث إليهم بحكاياته ونوادره ، ونكاته المطربة ! فهو كحافظ شاعر لبق ، ومحدّث ألبق ، يستقبله السامعون ، كما يستقبلون تحفة ظريفة شائقة ، تملأ نفوسهم سروراً وبهجة ، وتسرّى عنهم هموم الحياة ، وأثقال العيش !

أما كامل الشنّاوى ، وأحمد عبد المجيد الغزالى ، والشاعر المُخْتَضَر « هاشم الرفاعى » ، فكانوا بلابل مغردة ، وقمارىّ شادية ! وأوتاراً مرنِّـمة !

* * *

ومعظم شعرائنا الأحياء — نَسَأَ الله فى أعمارهم — يجيدون الإنشاد ، وقد ظاهرهم على ذلك كثرة مُعاناتهم لإلقاء الشعر فى الأنديات الأدبية الكثيرة ، وتنافسهم فى جمال الإلقاء ، حتى يفوزوا بتقدير المستمعين ! وفى ذلك فليتنافس المتنافسون !

ونضرب عن ذكرهم صفحاً ؛ لكثرة عددهم ، وإشفاقًا من إغفال بعضهم سهواً ، فيلحقنا اللوم أو العتاب ! ونحن لا نحتمل لومهم ولا عتابهم !

ونكتفى بذكر اثنين منهم :

أحدهم : انزوى تحت وطأة السنّ والمرض — شفاه الله وعافاه[1] ! — حتى كاد ينسى مع الأسف فى بلد قال فيه « شوقى » — وقد صدق فى قوله — :

نُسِيَتْ رَوْعتُه فى بلد كلُّ شىءٍ فيه يُنْسَى بعدَ حين

وهو شاعر الوفاء ، وصاحب ديوان « الوفاء » الأستاذ « بولس غانم » .

و بولس غانم لبنانى الأصل ، ذو غُنّة واضحة محببَّة ! وهو لا ينشد شعره كما ينشده الناس ، وإنما يتغنى به حقيقة ، ويلقيه على شكل غمغمات مستطيلة ، مصحوبة بهزّ رأسه ، وإمالة عنقه ، وترنيح عطفيه ، كما يفعل الصوفية فى حلقات الأذكار !

وأحسب أن الأعشى كان يصنع مثل ذلك ؛ فإذا صحّ حَدْسى ، فالشاعر « بولس غانم » صنو الأعشى ، وصَنَّاجة الشعر فى العصر الحديث ، وأجدر الشعراء « أن يلقَّب بالشاعر المغنّى أو المغرّد أو المطرِّب » إلى غير ذلك .

والشاعر الآخر كلُّ إخوانه يسلّمون له بموهبة الإنشاد ، وهو « عبد الله شمس الدين » .

و يدعونه « الشاعر الرهيب »[2] لضخامة جسمه ، وفخامة منظره ، وفحولة صوته ، وامتداده إلى أبعد غاية نعرفها ! وأنا أدعوه لكل ذلك «دبَّابة الشعراء»!

وفى الحق : أن صوت عبد الله شمس الدين يوازى عدة أصوات مجتمعة ، وهو يسير فى إنشاد شعره على قاعدة نفسيَّة — وإن لم يتعمّد [ذلك — كما كان يفعل الحجاج الثقفى فى خطبه الصادعة !

---

(١) كان حيا وقت تأليف الكتاب .

(٢) الرهيب : لم أجدها فى المعجمات اللغوية ، ووجدتهم يقولون : الراهب والمرهوب ، ويوصف بهما الأسد ، كما سموا راهباً ومرهباً ومرهوباً .

فيبدأ إنشاده بصوت خفيض ، كأنّما يستدرج الناس إلى الإصغاء ، حتى إذا ألقوا إليه بأسماعهم ، أخذ يزمجر ويهمهم ويزأر ! مطبقاً جفنيه ، حيناً ، مصوّباً نظره مرة ، ومصعّداً له أخرى ! ضارباً بيديه العَبْلتين في الهواء ! كمن يصارع شبحاً منظوراً له وحده ! فيسحَر أعيُن النَّظّارة ويسترهبهم ، ولا تزال أبصارهم معقودة بعينيه التي لا يرى إلا بياضهما ، وأذانهم منشورة لالتقاط كلماته ، حتى يفرغ من إنشاده ! وكأنّهم أمام فارس من فرسان الصَّوْل ، لا فارس من فرسان القول !

وعبد الله شمس الدين يعرف جيداً ما أوتي من إلقاء « رهيب » كملقيه ، فيؤثر ألاّ يطيل قصائده ، حتى لا يطيل إنشاده ، رحمة بنفسه وبمستمعيه ! وأشهد أنني ما رأيته قطّ ينشد إلا ذكرت قول الشاعر :

جهيرُ الكلام جهير العُطاس جهير الرُّواءِ جهير النَّغَمْ
ويخطُو على الأَيْن خَطْو الظَّليم ويعلو الرجالَ بخَلْق عَمَم[1]

ومما يجب التنبّه له : أن هذه الثورة الباطنية ، لها تأثيرها في الصوت ، نحسّ ذلك في أنفسنا ، ونلاحظه في غيرنا .

فدرجة الأصوات في الحدّة والضّخامة ، تكون مناسبةً لقوة الشعور المعبَّر عنه ؛ فالإنسان في حال الانفعال ، إما أن يغلبه السكون ؛ أو يتكلم بلغة يضمحلّ فيها الصوت ، ويقطّعها التّرجيع ، وتتباين نبراتها في جَرْس الأصوات واتقاده[2] !

* * *

شواعر مصر :

وعندنا بمصر شواعر محسنات في الإنشاد ، لكلٍّ منهنّ إلقاء خاصّ عرفت به وعرف بها ! ولكن يؤلف بينهنّ جميعاً ، نداوة الصوت ، وعذوبة الإيقاع ، وحلاوة النغم ! .

---

(١) الأين — كعين — : التعب . والعمم — كسبب — : التام العظيم .
(٢) خواطر الخيال — ١ — ٢٢ .

ومن المسلَّم به : أن الأنوثة الرقيقة ، تخلق من الصوت الخشن صوتًا رقيقًا مُستساغًا ، فما الظن إذا كان الصوت رقيقًا بطبعه ، وكان الشعر مُستجاداً !

وإنه ليعجبنى فى ذلك قول المازنى — رحمه الله — تحت عنوان «إنشاد الشاعر شعره» [1] :

ورُبَّ فتاةٍ يملك الطَّرْف حُسْنُها   تُغَنِّى بشعر مُسْتَرَثّ فَتُطْرِبُ

كستْه من الصوت الأنيق حَلاوةً   فعاد نضيرَ النَّوْر يُصْبِى ويُعْجِب [2]

وثابت إليه روحُه وتضوّعتْ   نسائمُ فى بَوْغائها نتقلّب [3]

فكلّ فؤاد فى نعيم ولذّة   وقد يمْكُر الصوتُ النَّدِىّ ويكذب

ولكنه مكر شهِىٌّ إلى النُّهَى   خفيف كما شاءَ الجمال مُحَبَّب

وما أجمل ما قاله صديقنا الشاعر الكبير محمود غنيم فى نطاق هذا المعنى — تحت عنوان ، « شاعرة » — [4] :

كاعب جرّت ذيولَ الأَدبِ   وتغنّتْ بقريض العربِ

يأْسُن الشِّعْرُ فإن مرَّ على   فمها عادَ بنَفْحٍ طيِّب [5]

تخرُج الألفاظُ مُعْذَوْذِبةً   من فمٍ حُلْوِ اللَّمَى مُعْذَوْذِب

دُرَر خارجةٌ من دُرَر   تلك لم تُثْقَب وذى لم تُثْقَب

إن خمراً كأْسُها من خَزَفٍ   غيرُ خمر كأْسُها من ذهب

شدَّ ما يأسِر لُبِّى قَلَمٌ   مُرْهَفٌ فى أَنْمُلٍ مُخْتَضِب

---

(١) ديوان المازنى (ط المجلس الأعلى) .

(٢) النور — بفتح فسكون — : الزهر الأبيض ، وأما الأصفر فزهر .

(٣) البوغاء — بفتح فسكون — : رائحة الطيب .

(٤) صرخة فى واد — ١٦٠ .

(٥) أسن الماء : تغير لونه وطعمه ، والفعل من باب ضرب ودخل وطرب فهو آسن ، ومثله أجن .

يا رعى اللهُ قَواماً لَيِّناً ينْحنِى كالقَوْس خَلف المكتَب
ويميناً بَضَّـــةً ناعمةً خُلِقتْ للجِدّ لا لِلَّعِب
طبع النِّقْسُ عليها شامةً كالَّتِى فى خدِّها الملتهِب[1]
أَنَّ فى مِعْصَمِها مِرْقَمُها كأَنينِ العاشق المُكْتئِب
وحَنى بين يديْها رأْسَه كانحناءِ السّاجد المقترِب

* * *

غادةٌ مرآتُها إن نظرتْ صفحةٌ من صفَحات الكُتُب
يا إلَه الشِّعر بارِكْها إذَا سبحتْ فى موجه المُصْطخِب
احفظِ الهيفاءَ من تيّاره ليس بحرُ الشّعر سهلَ المركَب
يافتاةَ الخِدْر عَوَّذتُك من سهر الليل ونجوَى الشُّهُب
وشرودِ الفكرفى جُنْح الدُّجَى وهروب اللفظ عند الطَّلَب
اتركى جَفْنَك يَنْفُثْ سِحْرَه فى خَيالى وقفِى عن كَثَب
لا تقولى الشِّعرَ بل أَوْحِى به أَنتِ خِصْبٌ للخيال المُجْدِب
إنَّما الشِّعرُ «محيطٌ» فاسْلَمى وَدَعِى أَمواجَه تَقْذِف بى
إنَّه عِبْءٌ على حامله ما لهذا العِبْءِ إلاَّ مَنْكِبى

* * *

شعراء وشواعر سورية :

ومن شعراء الشقيقات العربيات الذين سمعتهم ، وهزّنى إنشادهم : الشاعر السورى الدمشقى الكبير « شفيق جبرى » .

---

(١) النقس – بكسر فسكون – : الحبر : والشامة : الخال .
(٢) المرقم – كمعصم – : القلم .

وهو – على تقدّمه فى السنّ – يتمتع بشباب ينضح على جسمه و وجهه ولونه ، و يلقى شعره بصوت جَـهْـوَرِىّ مُجَلْجِل ، وأداء فخم مؤثِّر ، يهزّ المحفل هزًّا !

وقد أنشد فى بعض مهارج الشعر بدمشق قصيدة « بطولات العرب » وهى تناهز مائة بيت ، لم يضعف فيها ولم يفتُر ، بل ألقى آخر بيت منها بنفس الصوت الذى بدأها به !

ومن الشواعر اللواتى سمعتهنّ وأعجبت بشعرهن وإنشادهن : الدكتورة « طلعت الرفاعى » و « عزيزة هارون » و « هند هارون » و « نبيهة حداد » .

وقد جاء فى وصف « عزيزة هارون » هذه الكلمة : شاعرة مهذبة وديعة عالية التربية الاجتماعية ، نشأت فى بيئة ممتازة ، خلعت عليها كل صفات الامتياز ، أنيقة حِسًّا ومعنى ! أنيقة فى صورتها وهندامها وكلامها ، وفى كل ما يجب أن يكون أنيقًا فى حواء !

وهى بجمالها الفاتن ، وبياضها الناصع ، واستدارة وجهها القسيم الوسيم ، وعينيها الخضراوين النجلاوين ، وشَعرها الفينان المتموّج ، تعدّ من ملكات الجمال ، وتمثّل تمثيلا صادقًا جمال الجزء الشمالى من سورية ، الذى تلقّح فيه الدم العربىّ الأصيل بدماء أخرى ، فأثمر نوعًا من الحسن والملاحة والصّباحة ربما كانت النموذج الأعلى لمفاتن الجنس اللطيف !

ولو أن اليازجى تأخر به الزّمان ، ورأى « عزيزة » لقلنا : إنه يعنيها بقوله :

عزيزةُ قوم حبُّها قد أَذَلَّنى ... نَعَمْ كلُّ من يهوَى الحسانَ ذليلُ

إنّ أنوثة رقيقة ، مع جمال باهر ، مع شاعرية خصبة ، مع صوت هامس رخيم ، يساوى قنبلة هدروجينية ، وكذلك عزيزة هارون !

وهى عضو بلجنة الشعر بسورية ، ولها مكانة مرموقة فى الأوساط الاجتماعية والأدبيّة[1] !

---

(١) خمسة أيام فى دمشق – ١٠٠ .

ووصفها الأستاذ الدكتور « شكرى فيصل » الأستاذ بالجامعة السورية فى « جريدة الأيام » فقال : أناقة من كل وجه ! أناقة فى المظهر والمخبر ! أناقة فى اللفظ ! وأناقة فى المعنى ! وأناقة خاصة فى الإلقاء ! ويتخلل ذلك عاطفة ثائرة، وراء الألفاظ الهادئة ! ! فى النار ولا تحترق هذه الفراشة الملوّنة ! دائمًا تجدّد خلقًا بعد خلق ! لقد أرادت أن تمزج بين ذاتها الداخلية وذاتها القومية فى تناغم موفّق ! إنها كانت فى المهرجان صوتًا مشرّفاً ! وهى تقع فى دنيا الشعر فى كثير من المرّات، على مالا يقع عليه أكثر الشعراء من دقائق اللّمْح! وفى هذه الدقائق يبلغ شعرها الذّروة ، ومن إحساسها العميق يكون انطلاقها[1] .

* * *

وجاء فى وصف الدكتورة « طلعت الرفاعى » هذه الكلمة : إن من يشاهدها — وهى تنشد شعرها — لا يشكّ فى أن للشعراء شياطين تلهمهم ، كما كان يزعم السابقون ، ويعتقد بصفة خاصة : أن روحًا من الأرواح تتقمصها ، وتنفث فى رُوعها ، وتنطق عن لسانها !

إنها لا تكاد تبدأ فى شدوها ، حتى يزمهرّ وجهها ، ويتوهّج خدّاها ، وتذبُل عيناها ، وتغتمض نصف اغتماضة ، وتبدو كأنها تعانى حُرَقًا مبرّحة ، وألامًا دفينة ، فيضاعف ذلك من فتونها ، ويبتعث شفقتك وعَطْفك عليها !

وهى فى أثناء ذلك تميل برأسها يَمْنة ويَسْرة ، وأماماً وخَلْفاً ، فى حركات رشيقة راتبة متّزنة ، وتنقّل يديها ذات اليمين وذات الشمال ، متابعة لحركات رأسها ، كل ذلك موقّع على صوتها الموسيقى الرخيم الذى يشبه بُغام الظباء !

وعند نهاية كل بيت ، ترمى السّامعين بنظرات ساهمة حالمة من طَرفها الغضيض ، يقطّعها وميض ابتساماتها الوضيئة ، التى لا تشك فى أنها تصدر تلقائيًّا دون وعى !

---

(١) خمسة أيام فى دمشق — ١٠٣ .

وقد صرّحتْ هي : بأنّها فى هذه الحال تكون فى شبه حُلم ، وهذا ما أقطع به !

وقد كان يخيَّل إلينا حينما تَجيش وتضطرم ، فيكتسى وجهها صِبغة الورد : أنها توشك أن تحترق ، فنتمنى — مع لهفتنا على سماعها — لو أنها كفَّت عن الإنشاد !

وقد جاء فيها من الشعر ما يلى :

غُلِبْتُ على أَمرى ببُلْبل أَيْكَةٍ ... يُغَنِّى فيحتاز العقولَ ويَسْلُبُ
يُعاطيك خَمْرًا طَرْفُه وبيانُه ... فمِنْ لحظِه أَو لَفْظِه أَنت تَشْرَب
إِذا ما شدا شِعْرًا تَرَاءَيْتَ وجهَه ... يُفَضَّض أَحْياناً وحيناً يُذَهَّب
فتخشَى عليهِ من تَوَهُّج رُوحه ... وَوَقْد حِجاهُ أَنَّه يتلهّب
كأَنَّ له من جنّ عَبْقَرَ صاحباً ... يَفيض عليه باللُّحون ويَهْضِب[1]
ترى الناسَ سَكْرَى حولَه وهو مُنْشِدٌ ... حُضوراً وهُمْ من نَشْوة الرّاح غُيَّب
وأَفْتنُ فتَّان قريضٌ مهذَّبٌ ... يُغَنِّيه أَلحاناً جمالٌ مُهذَّب

---

(١) يهضب : يمطر .

الفصل السابع

شعراء لا ينشدون !

أوكانوا ينشدون ، وكفوا عن الإنشاد !

قدّمنا : أن الأصل أن ينشد الشاعر شعره ، إلاّ أن يحول دون ذلك حائلٌ ما .

والناظر فى أخبار الشعراء ، يجد أنه لم يخل عصر من شعراء نابهين مجوِّدين فى إنشاء الشعر ، ولكنهم قعدوا عن إنشاد شعرهم لسبب من الأسباب ، كآفة لسانية ، أو كبر السنّ ، أو الحياء ، أو الكبرياء ، أو غير ذلك .

من هؤلاء الشعراء :

أبو عطاء السندىّ :

وكانت فى لسانه عُجْمة شديدة ، ولُثْغة جعلتاه لا يكاد يبين! مع بديهة جيدة ، وعارضة قوية !

وهو من مخضرمى الدّولتين الأمويّة والعبّاسية .

وقد قصد أبو عطاء سليمان بن سُلَيْم الكِلابىّ ، يشكو إليه حاله ، وما يلاقيه من الضيق والكرب لذلك ، فأنشده قوله :

أَعْوَزَتْنِى الرُّواةُ يا بن سُلَيْم وأَبَى أن يُقِيم شِعرى لسانى

وغَلَى بالذى أُجَمْجِم صدرى وجفانى ـ لعُجْمتى ـ سلطانى[1]

---

(١) جمجم الرجل وتجمجم : إذا لم يبين كلامه .

واز۟دَرتْنى العيونُ إذ كان لونى حالكاً مُجْتَوًى من الأَلوان[1]

فضربت الأُمورَ ظَهرًا لبطن كيف أَحتال حِيلةً للسانى[2]

وتمنّيت أَننى كنت بالشِّعر فصيحاً وبان بعضُ بَنانى[3]

ثم أَصبحت قد أَنَخْت رِكابى عند رَحْب الفِناءِ والأَعْطان[4]

فاكْفِنى ما يَضيق عنه رُواتى بفصيح من صالحى الغِلمان

يفهم الناس ما أَقول من الشعر فإنَّ البيانَ قد أَعيانى

واعْتمدنى بالشكر يا بن سليم فى بلادى وسائر البلدان

سَتُوافيهمُ قصائدُ غُرٌّ فيك سبّاقة بكلّ لسان

فقديماً جعلت شكرى جزاءً كلُّ ذى نعمة بما أَوْلانى

لم تزلْ تشترى المحامدَ قِدْماً بالربيح الغالى من الأَثمان

فأمر له بوصيف بربرىّ فصيح ، فسمّاه « عطاء » وتكنّى به ، وروّاه شعره .

فكان إذا أراد إنشاء شعر مديح لمن يجتديه ، أو مذاكرةً بشعر ، أمره بإنشاده !

وقد مات أبو عطاء سنة ١٦٨ هـ[5] .

وأبياته السالفة تدلّ على مبلغ ما كان يعانيه من الحسرة والكمد ، حين

---

(١) اجتواه : كرهه .

(٢) ضرب الأمور ظهراً لبطن : قلبها على جميع وجوهها .

(٣) بان : انفصل . والبنان : أطراف الأصابع .

(٤) الفناء – ككساء – : ما اتسع من أمام الدار ، والأعطان : جمع عطن – كسبب – وهو فى الأصل مبرك الإبل حول الحوض ، ومربض الغنم حول الماء ، وفلان رحب العطن : كثير المال

(٥) الأغانى ج ١٦ – ٨٣ .

ينشئ الشعر الجيّد ، ولا يستطيع إنشاده ، وقد عبّر عن ذلك أحسن تعبير ! حيث شبّه لسانه المحبوس عن القول ، بالقِدْر التى تَغْلى وتفور ، ولا تجد لها مُتَنَفّساً !

* * *

الكميت بن زيد الأسدى :

كان الكميت طويلا أصمّ ! ولم يكن حسَنَ الصوت ، ولا جيّد الإنشاد !

فكان إذا استنشده إنسان ، أمر ابنه « المستَهِلّ » فأنشد بدله !

وكان المستهلّ حسَنَ الإنشاد !

وقد تقدم : أن الكميت أنشد بنفسه أمام « مخلّد المهلبى » فلعل ذلك كان قبل أن يُصاب بالصّمَم ، أو كان يُنشد فى الفلتات !

* * *

عاصم بن زيد العبادى الأندلسى :

كان عاصم يعرف بأبى المخشّى ؛ وهو شاعر الأندلس فى زمانه ، وقد عُرف بخبث اللسان ، وكثرة الهجاء !

وله قصيدة مدح بها أبا أيوب بن عبد الرحمن الداخل ، عرّض فيها بأخيه الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ! وذلك حيث يقول :

وليس كمن إذا ما سِيل عُرْفاً يقلّب مُقْلةً فيها اعورارُ[1]

وكان فى إحدى عينى هشام نكتة بياض ، كجدّ أبيه هشام بن عبد الملك ابن مروان !

فأمر هشام بقطع لسانه ، وسمْل عينيه !

فعظم مصاب عاصم ، وكثرت شكايته وتوجُّعه فى أشعاره مما نزل به !

---

(١) سيل : أصلها : سئل سهلت الهمزة لضرورة الشعر . والعرف – بضم فسكون – : المعروف .

وهذه من مزالق الشعراء ، وجرأتهم الحمقاء ، وركوبهم المركب الخشن ، ومطاولتهم من يقدر على إنزال الضرر بهم ، مع عجزهم عن الانتصاف منه ! وبخاصة فى عصور الاستبداد !

أَرأَيت عصفورا يُزاحِم باشِقاً   إلا لِطَيْشته وقلة عقله

وقد نبت بعد ذلك لعاصم لسان ، فكان يُنْشد به ، مع تلعثم ، وعدم إبانة ! فكان ينشد له صبىٌّ علّمه ودرّبه !

وكان الإمام مالك — رضى الله عنه — يُفتى أولا — فيمن قطَع لسان رجل عمداً — : بقطع لسانه من غير انتظار !

ثم رجع عن رأيه لما انتهت إليه قصة « أبى المخشّى » وأن لسانه نبت بعد قطعه بمقدار سنة ، وأنَّه تكلم به .

فقال : ينتظر سنة ، فقد ثبت عندى : أن رجلا بالأندلس نبت لسانه ، بعد أن قطع فى نحو هذه المدة .

* * *

أبو تمام الطائى :

كانت فى أبى تمَّام حُبْسة شديدة وتمتمة[1] !

وقد حدث أنه امتدح أبا دُلَف العِجْلى — وكان فى المجلس من يكره أبا تمام — فلما افتتح قصيدته المشهورة — وهى من قصائده البارعة — بقوله :

على مثلها من أربُع وملاعب

قال الرجل : لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين !

فدهش أبو تمام !

وتمام البيت :

* تُذال مَصوناتُ الدموع السواكب[2] *

(١) التمتمة : رد الكلام إلى التاء والميم ، أو أن تسبق كلمة إلى الحنك الأعلى ، وهو تمتام ، وهى تمتامة .

(٢) تذال : تهان وتبتذل .

وقد استمر أبو تمام يُنشد بنفسه ، ثم ترك الإنشاد لهذه الآفة ! فكان أخوه « سهم » ينشد نيابة عنه ! .

وفى حُبْسة أبى تمام وتمتمته عند الكلام ، يقول فيه مخلد بن بكّار الموصلى :

يا نبىَّ الله فى الشعر ويا عيسى بنَ مريمْ[1]
أَنت من أَشعر خلق الله ما لم تتكلم

ثم اشترى له « سعيد الثّغرى » غلاماً اسمه « الفتح » بثلاثمائة دينار ، لينشد شعره .

وكان الفتح غلاماً أديباً فصيحاً [2]

* * *

الشريف الرضىّ :

كان الشريف الرضىّ — رحمه الله — لا ينشد فى المواقف المهيبة !

وقد روَى « صاحب اليتيمة » : أنه نظم قصيدة فى بهاء الدولة ، فأنفذها إليه ؛ فنسبه بعض الحسّاد إلى الترفُّع عن إنشادها !

فقال : « الرضىّ » يعتذر عن الإنشاد : بأنه حيىّ الوجه ! وقال فى ذلك :

جَنانى شجاعٌ إن مَدَحتُ وإنَّما لسانىَ إن سِيمَ النَّشيدَ جبانُ
وما ضرَّ قَوَّالا أَطاع جَنانُه إذا خانَه عند الملوك لسان[3]
ورُبَّ حَيِىٍّ فى اللسان وقلبُه وَقاحٌ إذا لَفَّ الجيادَ طِعان[4]
ورُبَّ وَقاحِ الوجه تحمِل كفُّه أَناملَ لم يَعْرَق بهنّ عِنان[5]

---

(١) يريد : أن الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — لا يليق بهم قول الشعر ؛ لقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » .

(٢) دولة النساء — ١٠٩ — الأغانى — ١٨ ص — ٤٧ .

(٣) أطاع جنانه وطاع : انقاد . والفعلان : لازمان .

(٤) الوقاح هنا : الصلب الجرىء .

(٥) لم يعرق بهن عنان : كناية عن الجبن ؛ وأنه لم يركب فرساً فى الحرب .

وفخرُ الفتَى بالقول لا بنشيده ويَرْوِى فلانٌ مرةً وفلان

* * *

أحمد شوقى :

كان شوقى – رحمه الله – لا ينشد شعره بنفسه ، فكان ينوب عنه فى إنشاده بعض من يحسن الإنشاد ؛ كالمرحوم «كامل الشّناوى» من رجال الأدب والصّحافة ، والمرحوم «كامل زيتون» من رجال التّربية والتعليم .

وقد ناب عنه المرحوم «على الجارم» فى إلقاء قصيدته التى رثى بها صديقه وزميله «إسماعيل صبرى» فى حفل تأبينه ، بمناسبة مرور الأربعين على وفاته !

وأول القصيدة :

أَجلٌ وإن طال الزمانُ مُوافِى أَخْلَى يديْك من الخليل الوافى

وكان لبلاغة القصيدة التى تعدّ من فرائد شوقى فى المراثى ، بما حوت من حكم وأمثال فى فلسفة الموت ، وغرور الدنيا ، وتفجّع على ذهاب الشباب ، وفراق الأحباب ، وأداء «الجارم» الشّاجى ، واحتفاله بالإنشاد ، وتفنّنه فى الإلقاء ؛ وقع السحر فى نفوس الحاضرين ، حتى لقد بدا الشعراء المؤبنون أقزاما – على جودة شعرهم – بجانب أميرهم العملاق !

وإليك طرفًا من هذه المرثية الرائعة :

يقول فى نعيم الدنيا المشعر ببؤسها :

ما أَنت يا دنيا أَرؤيا نائمٍ أَم ليل عُرْس أَم بِساطُ سُلاف

نَعماؤك الريحانُ إلا أَنه مسّت حَواشيه نقيعَ زُعاف

ويقول فى العلّة التى أوْدت بالشاعر الراحل – وهى الذبحة الصدرية –:

ذهَب الذبيحُ السَّمْحُ مثلَ سميّه طُهْر المُكَفَّن طيّب الأَلفاف[1]

---

(١) سميه : هو سيدنا إسماعيل عليه السلام .

كم بات يذبَح صدرَه لشَكاته — أَتُراه يحسَبها من الأَضياف
نزلتْ على سَحْر السَّماح ونحره — وتقلَّبت فى أَكرم الأَكناف(١)
لجّت على الصّدر الرحيب وبرّحت — بالكاظم الغيظ. الصَّفوح العافى
ما كان أَقْسَى قلبَها من عِلَّة — عَلِقَتْ بأَرْحَم حَبَّة وشِغاف(٢)
قلبٌ لو انتظم القلوبَ حَنانُه — لم يبق قاسٍ فى الجوانح جاف

ويقول فى مغالاة الأحياء بتشييد القبور :

لا يُعْجِبَنَّك ما ترى من قُبّة — ضربوا على مَوتاهمُ وطِراف(٣)
هجموا على الحقّ المبين بباطلٍ — وعلى سبيل القَصْد بالإِسراف
يَبْنون دارَ الله كيف بَدالَهُمْ — غُرُفاتِ مُثْر أَو سَقيفةَ عاف
ويُزَوِّقون قبورَهم كقصورهم — والأَرضُ تضحَك والرُّفات السّافى

ويقول فى فجيعتنا بالشاعر العظيم :

فُجعَتْ رُبَا الوادى بواحدِ أَيْكِها — وتجرّعتْ ثُكْلَ الغدير الصّافى
فقدتْ بَناناً كالربيع مُجيدةً — وَشْىَ الرِّياض وصَنْعة الأَفواف
إن فاته نَسَبُ الرّضىّ ، فربَّمَا — جرَيا لغايةِ سُؤدُدٍ وطِراف(٤)
أَو كان دونَ أَبى الرضىّ أُبُوَّةً — فلقدْ أَعادَ بيانَ عبد مناف
شَرَفُ العِصاميينَ صُنْعُ نفوسهم — مَن ذَا يَقيس بهم بَنى الأَشْراف
قُلْ للمشيرِ إلى أَبيه وجَدِّه — أَعلمتَ للقمريْن من أَسلاف

---

(١) السحر : كصدر وقفل وكتف — : الرئة .
(٢) يريد بالحبة والشغاف : القلب .
(٣) الطراف — ككتاب : بيت من الجلد . والمراد به: المقاصير التى توضع على بعض القبور.
(٤) الطراف هنا : مأخوذ من قولهم : توارثوا المجد طرافا : أى عن شرف .

ويقول فى المصير الحتم الذى ينتهى إليه كلّ الناس ، ويتساوون لديه :

«قاضى القُضاةِ » جرتْ عليه قضيّةٌ ... للموت ليس لها من استئناف
ومُصرِّف الأَحكام موكولٌ إلى ... حُكْمِ المنيّة ماله من كَاف
ومنادمُ الأَملاك تحتَ قبابهم ... أَمْسَى تُنادمُه ذئابُ فَيَاف
فى منزل دارت على الصِّيد العُلا ... فيه الرَّحى ومشتْ على الأَرداف(١)
وأُذِيل من حُسْن الوُجوه وعزِّها ... ما كان يُعْبَد من وَراء سِجاف(٢)
من كلِّ لمّاح النَّعيم تقلَّبت ... دِيباجتاه على بِلًى وجَفاف
وتَرَى الجماجمَ فى التُّراب تَماثَلَتْ ... بعدَ العقول تَمَاثُلَ الأَصداف
وتَرَى العيونَ القاتلاتِ بنظرة ... مَنْهوبةَ الأَجفان والأَسياف
وتُراعُ من ضَحِك الثُّغور وطالما ... فَتَنَتْ بِحُلْو تبسُّم وهُتاف

ثم يتواضع — رحمه الله — فى ظل جلال الموت ، وجمال الوفاء للأصدقاء الراحلين ، والاعتراف بسابقتهم وفضلهم ، فيقول :

أَأَباالحسين تحيّةً لثراك مِن ... رَوْح ورَيْحان وعَذْبِ نِطاف(٣)
وسلام أَهْلٍ ولُدِّهِ وصَحابةٍ ... حَسرَى على تلك الخِلال لِهاف
هل فى يدىَّ سِوَى قريضٍ خالدٍ ... أُزْجيه بين يديك للإتحاف
ما كان أَكْرَمَه عليك فهل ترَى ... أَنى بعثت بأَكرم الأَلْطاف
هذا هو الرّيحانُ إلاَّ أَنه ... نَفَحاتُ تلك الرَّوْضَة المِئناف(٤)

---

(١) الأرداف : جمع ردف ، وهو جليس الملك عن يمينه يشرب بعده ، ويخلفه إذا غزا .
(٢) السجاف — ككتاب : الستر .
(٣) النطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى قل أو كثر ، أو قليل ماء يبقى فى دلو أو قربة
(٤) الروضة المئناف : البكر التى لم ترع ولم تجن .

والدرُّ إلاَّ أَن مَهْدَ يتيمه بالأَمْسِ لجّةُ بحرك القَذَّاف
أَيامَ أَمرَح فى غُبارك ناشئاً نهجَ المِهار على غُبار خَصاف(١)
أَتَعلَّم الغاياتِ كيف تُرام فى مِضْمارِ فَضْلٍ أَو مَجال قَواف

وهكذا بقية القصيدة فى الحسن ، وما محاسن شيء كله حسن – كما يقولون – رضى الله عن شوقى ! فقد فات السابق ، وأتعب اللاّحق !

حلَف الزمانُ ليأْتينَّ بمثله حَنَثتْ يَمينُك يا زمان فَكَفر

وقد اختلف الأدباء فى تعليل امتناع شوقى عن الإنشاد بنفسه !

فقيل : إنه كان خفيض الصوت ، لا يمكنه إسماع الجماهير !

وقيل : إنه كان رقيق الوجه ، كثير الخجل ، لا يستطيع مواجهة النّظارة .

وقيل : إنه كان عَيِيًّا حصِراً ، معقول اللسان !

وقيل : إنه كان مزهوًّا متكبرًا ، يرى أنه أرفع من أن يقف منشداً للشعر ، أو أكبر من أن يقف مع غيره من الشعراء ! وهو تعليل مردود ، لأن شوقى كان رقيقًا مهذبًا متواضعًا حييًّا ، قليل الكلام بطبعه ؛ حتى لتظنّه قليل الحظ من التعليم والعرفان . ولا ندرى أى هذه العلل أحقّ بالتصديق ؟ وقد تكون كلها مجتمعة ، وإن كنت أرجح العلة الأولى والثانية والثالثة .

وقد عرض المرحوم حافظ إبراهيم ، فى قصيدته التى كرمه بها فى حفل مبايعته بإمارة الشعر ، فنفى عنه العِىّ والترفّع ، ولكنه لم يذكر لنا السرّ فى عدم إلقاء الشعر بنفسه ، وكان الواجب أن يذكره ما دام قد تعرّض إلى ذلك ، وإلا كان الكلام ناقصًا .

---

(١) خصاف – كسحاب – فرس لمالك بن عمرو الغسانى ، وككتاب : حصان لسمير بن ربيعة الباهلى ، وفيهما يقال : أجرأ من فارس خصاف بالفتح وبالكسر !

يقول :

يَعيبون « شوقى » أَن يُرَى غيرَ مُنْشِد   وما ذاك من عىٍّ ولا من تَرَفُّعِ

ثم يقول :

وما كان عاباً أَن يَجىءَ بمنشد   لأَبياته أَو أَن يجىءَ بِمُسْمِع

فهذا كليمُ الله قد جاءَ قبلَه   بهارونَ ما يأْمُرْه بالوحى يَصْدَع

وقد نسى حافظ : أن « كليم الله موسى » كانت به لُثغة جعلته أقلّ فصاحة من أخيه هارون — عليهما السّلام ! — فعذره واضح فى أن يستنصر فى التبليغ بأخيه !

فهل يريد « حافظ » أن شوقى به عيب من عيوب المنطق؛ كالفأفأة والتمتمة مثلا ؟

ذلك لم يعرف عن شوقى ، وهو لم يذكره حافظ !

هذا إلى أن « حافظ » نفى عنه كل أسباب العىّ فى بيته السابق :

. . . .   وما ذاك من عىٍّ ولا من ترفُّع

وعلى ذلك يكون « حافظ » وقع فى تناقض وخلط ،ساقه إليهما هذا القياس ، وهو قياس مع الفارق — كما قيل — .

ثم نسى حافظ كذلك : أن موسى لم يأت بهارون مستقلاً بنفسه دون ربّه ، كما أتى شوقى مختاراً بالمُنْشِد والمُسْمِع ؛ لأن موسى لا يستطيع أن يمنح النبوة أو يهب الرسالة لغيره . ولكنَّه طلب من الله أن يعينه بأخيه على أداء رسالته وحمل أمانتها « واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشْدُدْ به أزْرى وأشْرِكْه فى أمرى »[1] .

« ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرْسِلْ إلى هارون »[2] .

---

(١) الآيات — ٢٩ — ٣٠ — ٣١ — ٣٢ من سورة طه .

(٢) الآية ١٣ من سورة الشعراء .

« وأخي هارونُ هو أفصح منّي لسانًا ، فأرْسله معي رِدْءًا يُصدّقني إني أخاف أن يكذبون »[١] .

فأجابه – سبحانه – إلى طلبه ؛ رحمة منه وتفضُّلا وتطوُّلا !

« ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًّا »[٢] .

« ولقد آتينا موسى الكتاب ، وجعلنا معه أخاه هارونَ وزيراً »[٣] .

فهارون كان نبيًّا ورسولا مثل موسى ، لا مجرّد مبلِّغ فقط ؛ كالمنشد والمسمع عن شوقي !

وهارون لم يجئ به موسى ، وما كان ينبغي له أن يجيء به ! بل جاء به الله – تعالى – ففرق شاسع بين الموقفين !

هذا إلى أنه لم يُعْرَف أنّ أحداً عاب شوقي ؛ لعدم إنشاده شعره ؛ فالذين عاشروه وعرفوه مقتنعون : بأنه لا يصلح لإنشاد الشعر ! وهم ملتمسون له العذر ، ولكنهم مختلفون في تعليل ذلك ! فلا معنى لقول حافظ :

يعيبون شوقي . .
لأنّ أحداً لم يعبه !

ثم إنه لا تصحّ المقايسة والتشبيه بين موسى النبيّ والرسول ، وشوقي الشاعر ! ولا بين هارون النبيّ والرسول ، وأخي موسى ووزيره ، وبين «فُل» و«فلان» ممن يلقون شعر شوقي !

وفي مثل هذا يقول الزهريّ : لا تناظر بكتاب الله ، ولا بكلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أي لا تجعل شيئًا نظيراً لهما !

أو معناه : لا تجعلهما مثلا لشيء لغرض ، كقول القائل : « جئت على قَدَر يا موسى » : لمسمًّى بموسى جاء في وقت مطلوب[٤] !

---

(١) الآية – ٣٤ من سورة القصص .

(٢) الآية ٥٣ من سورة مريم .

(٣) الآية – ٤٥ من سورة الفرقان .

(٤) القاموس المحيط : مادة « نظر » .

ونحبّ أن نقول هنا : إذا صحّ أن شوقى كان لا ينشد حياء ، فإنّ له أخاً فى ذلك سابقًا له ، وهو الشريف الرضى ، كما مرّ .

وإن كان لا ينشد تكبراً أن يقف مع غيره من الشعراء ، فله شبيه فى ذلك ، وهو الحسين بن الضّحاك المعروف بالخليع !

فقد كان الحسين بن الضحاك ينشد بنفسه ، ولكنه كان يترفع عن الإنشاد مع الشعراء ! فقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى : أنه لما ولى الواثق بالله العباسىّ الخلافة ، جلس للناس ، ودخل إليه المهنئون والشعراء فمدحوه وهنئوه !

ثم استؤذن للحسين بن الضحاك فى الإنشاد — وكان من الجلساء — فترفّع عن الإنشاد مع الشعراء ، فأذِن له وحده ، فأنشده قصيدته التى أولها :

أُكاتمُ وجدى فما ينكتمْ ... بمن لو شكوتُ إليه رَحِمْ

وإنّى على حُسْنِ ظنّى به ... لَأَحْذَرُ إن بُحْت أن يَحْتَشِم

ولى عند نظرته رَوْعةٌ ... تُحقّق ما قاله المتهم

وقد عَلِم الناسُ أَنِّى له ... مُحِب ، وأَحسَبه قد عَلِم

رأَى شيمةَ الجود محمودةً ... وما شِيَمُ المجد إلاَّ قِسَم

فراح على « نَعَم » واغتدى ... كأَنْ ليس يُحْسِن إلاَّ نعَم

وإنى لمُغْضٍ على لوعة ... من الشّوق فى كبدى تضطرم

ثم يقول فى مديحه :

ترى النصرَ يَقْدمُ راياته ... إذا ما خفقن أَمامَ العَلَم

وفى اللهِ دَوَّخ أَعداءَه ... وجَرَّد فيهم سيوفَ النِّقَم

وفى اللهِ يكظِم من غيظه ... وفى الله يصفح عمنّ ظَلم

فأمر له الواثق بثلاثين ألف درهم ، واتخذه من ندمائه ، واتصلت أيامه به [1] !

(١) أغانى الشعب — ج ١٦ — ص ٨٥٢ — ٨٥٣ .

وأذكر بهذه القصة : أن المرحوم «على الجارم» بعد موت كبار الشعراء الذين يقاربونه في السنّ ، كان يأبى أن ينشد مع الشبّان فى الحفلات ، التى كانت تقيمها الإذاعة المصرية فى المناسبات المختلفة !

ولست أذهب هذا المذهب ؛ فالشعر ديمقراطىّ يؤمن بالتواضع ، ويكره التمايز والتعالى ! والشاعر الكبير يجب أن يعطف على الأحداث منهم ، ويشجّعهم ، وينزلهم منزلة أولاده !

* * *

خليل مطران :

يقول عنه العقاد : كان يروى شعره ، ولا ينشده إلا قليلا[١] .

ولعل هذا القليل الذى يعنيه العقاد ، هو ما كان يلقيه الخليل فى بعض المناسبات كحفلات التكريم والرثاء .

* * *

العقاد :

كان ينشد شعره بنفسه فى مناسبات قليلة جدًّا كحفلات التأبين ؛ لأنه — رحمه الله — لم يكن شاعر مناسبات !

وكان إنشاده مَهيبًا جليلا وقوراً ؛ مُسْتَمَدًّا من شخصيّته الضخمة ! ولكن صوته أجشّ مبهم ، خال من الطنطنة والرّنين !

وطالما تمنّى إخوانه ومحبّوه وتلاميذه ، لو أنه ترك إنشاد شعره الفلسفى الحكيم إلى غيره ! فكان أن استجاب لهم أخيراً ، فتخلى عن إنشاد الشعر ، بل إلقاء المقالات والخطب فى المهارج العامّة ! وناب عنه فى ذلك الأستاذ صالح جودت ! .

* * *

---

(١) من مقال للعقاد بمجلة الهلال سنة ١٩٥٩ م .

* * *

على الجارم :

كان الجارم – رحمه الله – ينشد شعره بنفسه – كما قلنا – ثم ضعف عن إنشاد الشعر فى أيامه الأخيرة ، فكان ينوب عنه ابنه الأستاذ « بدر الدّين الجارم» وهو منشد مبدع مثل أبيه – والولد سرّ أبيه – ! . . .

وكانت آخر قصيدة أنشدها « بدر الدين » نيابة عنه ، قصيدته التى رثَى بها المرحوم « محمود النقراشى باشا » أحد رؤساء الوزارات المصرية ، ورئيس الحزب السعدىّ ، المنبثق من « حزب الوفد » برياسة « مصطفى النحاس باشا » قبل قيام ثورتنا البيضاء ، وكان ذلك فى حفل التأبين الأربعينى الذى أقيم له !

وقد وافت « الجارم » منيّته المحتومة – فى هذا الحفل نفسه – وهو يسمع قصيدته مطرقًا واجمًا من فم ابنه !

وكان لموت « الجارم » المفاجئ فى حفل تأبين لميت ، وقع الصاعقة فى نفوس الحضور !

فأرسلوا العبرات من عيون شَكْرى[1] ! وصعّدوا الزفرات من صدور حرّى ! واستشعروا قرب الموت ورهبته وسطوته !

فولِهت النفوس ، ووَجفت القلوب ؛ ولم ير كاليوم أكثر باكيًا وباكية ! وسبحان من يرث الأرض ومن عليها ! وله الخلق والأمر ! وبيده نواصى العباد ومناياهم « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ولله درّ من قال :

وكم من صحيح مات من غير عِلَّة ... وكم من سقيم عاش دهرًا إلى دهر
وكم من فتًى يُمْسِى ويُصبح آمناً ... وقد نُسجتْ أكفانه وهو لا يدرى

وإلى هذا الحادث الفاجع ، يشير زميلنا الشاعر الكبير « محمود غنيم» فى رثائه للجارم من قصيدة عنوانها « عرش ينوح »[2] .

---

(١) شكرى – كسكرى : غزيرة الدمع .
(٢) ديوان فى ظلال الثورة – ١٨٨ .

ومطلعها :

عرش ينوح أسًى على سُلْطانه ... قد غاب كسرى الشِّعر عن إيوانه
لمَّا تَهَامَستِ الصُّفوف بنعيه ... كاد الفؤاد يَكُفّ عن خفقانه
ساءَلتُ حين قضَى عليٌّ فجأَةً ... هل حلّ يومُ الحَشْر قبلَ أوانه
سقَط المؤبِّن وهو يسمع شعرَه ... مَنْ ذَا يؤبِّنه بمثل بيانه
وصفَ الزمانَ لنا وجاد بنفسه ... لتكونَ برهاناً على حِدْثانه
قال احذروا غَدْرَ الحِمام مُعَزِّزًا ... بحياته ما قاله بلسانه
لا تعجبوا من موته فى حَفْله ... إنَّ الشجاعَ يموت فى ميدانه
بطل المنابر ماله مِنْ فوقها ... يَهْوِى وكم عَرَفَتْ ثبات جَنانه
إنْ خانه ضَعْفُ المشيب فطالما ... قَهَر المنابرَ وهْوَ فى رَيْعانه
كلاَّ لعمرى لم يَخُنْه مَشيبُه ... لكنَّ حِسَّ المرءِ من خُوَّانه
حُرٌّ قضى متأثرًا ببيانه ... ولكم جنَى فنٌّ على فنَّانه

* * *

محمود عماد :

كان محمود عماد — رحمه الله — ينشد شعره أيام شبابه ، ولكن ضَعُف صوته فى أيامه الأخيرة ضعفًا شديداً ، حتى لا يكاد يُسمع الصفّ الأول من المحافل الأدبية ؛ فكان يعتمد على مكبِّرات الصوت !

ثم لم تُغن عنه هذا المكبرات ، تحت إلحاح أمراض الشيخوخة ، فترك إنشاد شعره لغيره !

رحم الله من ماتوا وأجزل مثوبتهم ، وأكرم نُزُلهم ، ونسأ فى أعمار الباقين ، ورزقهم القوة والفتوّة !

الفصل الثامن

عذوبة النغمة

هناك أشياء لا بد من مراعاتها ، ليزداد بها الشعر حسنًا فى حال إنشاده ؛ كما أنها تُضفى على الإنشاد نفسه أناقة وبداعة وطرافة ؛ فتتلقاه المسامع بالقبول وتنشرح له الصدور ؛ وتتنزّى له العواطف والوجدانات ، وتحسّ له بشاشة ونداوة وحلاوة !

فمن ذلك عذوبة النغمة ، إذ ليس الإنشاد إلا ضربًا من الغناء ، والغناء يعتمد أساسًا على جمال الصوت ؛ ورقته ورخامته !

وقد قدّمنا أن الشعر المتناشَد ، يعلى من قدره ، ويغطّى على عيوبه ، ويمنحه رونقًا ونضرة وقبولا ، أن يكون ملقيه من ذوى الأصوات النديّة ، والنبرات الطليّة !

وينضاف إلى ذلك : أن يكون لسانه سالمًا من العيوب التى تَشين الألفاظ ، فلا يكون ألثغ ، ولا فأفاء ، ولا ذا رُتّة ، ولا تمتامًا ، ولا ذا حُبْسة ، ولا ذا لفَف[1] ؛ فإن ذلك أجمع مما يذهب ببهاء الكلام ، ويهجّن البلاغة ، وينقص حلاوة النطق[2] .

ولم يتكلم معاوية على منبر جماعة ، مذ سقطت ثناياه فى الطست !

---

(١) الرتة – بالضم – العجمة فى الكلام . والتمتام : من يرد الكلام إلى التاء والميم ، أو أن تسبق كلمته إلى حنكه الأعلى . واللفف – كسبب – : العى وبطء الكلام ، وملء الفم باللسان عند الكلام .

(٢) نقد النثر – ١١٢ .

ولما شدّ عبد الملك أسنانه بالذهب ، قال : لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت .

وأمر الصوت عجيب – كما يقول الجاحظ[١] – وتصرّفه فى الوجوه أعجب! فمن ذلك : أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة !

ومنه ما يسرّ النفوس حتى يفرط عليها السرور ؛ فتقلق أو ترقص ! وحتى ربما رمى الرجل نفسه من حالق ! وذلك مثل الأغانى المطربة .

ومن ذلك ما يُكمد ! : أى ما يجلب الكمد ، وهو تغير اللون ، وذهاب صفائه ، والحزن الشديد ، ومرض القلب منه ! .

ومنه ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه ؛ كنحو هذه الأصوات الشجيّة ، والقراءات الملحّنة .

ثم يقول : – وهو المهم فى موضوعنا – وليس يعتريهم ذلك من قبل المعانى ، لأنهم فى كثير من ذلك لا يفهمون معانى كلامهم ! وقد بكى « ما سرجويه » من قراءة « أبى الخوخ » فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تؤمن به ؟ فقال : إنّما أبكانى الشَّجا !

وقد عبر عن معنى « ماسرجويه » أبو تمام – وقد سمع غناء بخراسان بالفارسية ، فلم يدر ما هو ، غير أنه شوّقه لشجاه وحسنه – فقال فى ذلك[٢] :

حمِدتك ليلةً شرُفتْ وطابتْ أَقام سهادُها ومضى كَراها

سمعت بها غِناءً كان أَوْلَى بأَن يقتادَ نفسى من غِناها

ومُسْمِعةٍ يَحار السمعُ فيها ولا تُصْمِمْه ، لا يَصْمَمْ صَداها[٣]

مَرَتْ أَوتارَها فشفَت وشاقتْ فلو يَسطِيع حاسدُها فَداها[٤]

---

(١) الحيوان – ٤ – ٦٢ .

(٢) رغبة الآمل ، من كتاب الكامل – ٧ – ٣٠ – ٣١ .

(٣) لا يصمم صداها : دعاء لها بطول العمر .

(٤) مرت : يريد استخرجت ، وأصل المرى – كرمى – : أمسح ضرع الناقة لتدر .

ولم أَفهمْ معانيها ولكن ورَت كبدى فلم أَجهلْ شجاها[١]
فكنت كأَننى أَعمَى مُعَنًّى بِحُبٍّ الغانيات ولا يراها

وأفصح عنه حُمَيْد بن ثور فى قوله من قصيدة :

وما هاج هذا الشوق إلاَّ حمامةٌ دعت ساقَ حُرٍّ ترْحَةً وترنُّما[٢]
مُطَوّقة خَطْباء تسجَع كلَّما دنا الصيف وانجال الربيع فأَنجما[٣]
تغنَّت على غصن عِشاء فلم تدع لنائحة فى شجْوها مُتَلَوَّما[٤]
إذا حرَّكته الريحُ أَو مال ميلةً تَغنَّت عليه مائلا ومقوَّما
عجبت لها أَنَّى يكون غناؤُها فصيحاً ولم تَفْغَر بمنطقِها فما[٥]
فلم أَر مثلى شاقَه صوتُ مثلها ولا عربيًّا شاقه صوتُ أَعجَما

يقول : لم أفهم ما قالت ، ولكنى استحسنت صوتها واستحزنته ، فحننت له .

ويروى : أن بعض الصالحين كان يسمع الفارسية تنوح ، ولا يدرى ما تقول . فيبكيه ذلك ويرققه ، ويذكر به غير ما قصدت له .

ويقول ابن أبى ظبية : كنت أسمع إبراهيم بن المهدى يتنحنح فأطرب[٦]! وكان ابن المهدى إذا غنَّى ، أصغت إليه الوحوش ، ووقفت الطير ، ومدت أعناقها حتى تضع رءوسها فى حِجره ! فإذا سكت نفرت وهربت ! وكان إذا غنى

(١) الورى – كالرمى – وهو قرح شديد فى الجوف يهلك صاحبه .

(٢) ساق حر : ذكر القمارى ، أو حكاية صوتها ، أو الساق : الحمام . والحر – بضم الحاء وفتحها – : فرخها .

(٣) خطباء : من الخطبة بالضم ، وهى كدرة مشربة حمرة فى صفرة . وانجال : أقلع – وهى رواية المبرد – وفى نهاية الأرب – ٢ – ٢٤٨ : انزاح .

(٤) متلوم : ما تلام عليه .

(٥) فغره فاه من باب نصر ومنع : فتحه كأفغره ، وفغر فوه ، وانفغر : انفتح .

(٦) الفهرس – ٦٨ .

كذلك لم يبق أحد إلاّ ذهل وترك ما فى يده حتى يفرغ !

وبعض المغنين كان ينادى على اللحم فيطرب الناس ! وبعضهم يستوقف الظباء ، وبعضهم يستوقف الحامل، ويعطّل العمل بحسن صوته !

وبينما ابن مُليكة يؤذّن ؛ إذ سمع « الأخضر الجدى » يتغنّى فى دار العاص ابن وائل بقول المجنون [١] :

صغيرين نرعى البَهْمَ يا ليت أنّنا إلى اليوم لم نَكْبَر ولم تكبَر البَهْمُ

فأراد أن يقول : حيَّ على الصلاة ، فقال : حيَّ على البَهْم ! فسمعه أهل مكة؛ فجاء يعتذر إليهم [٢] !

وقد سمعت — وأنا صغير السن — من شيوخ قريتنا : أن الناس كانوا يطربون لصوت فتاة تدعى « زهرة بلابل » حين تنادى على فجلها : « ريّانى يا فجل » .

هكذا يفعل الصوت الجميل بنا، ولو كان يحمل إلينا كلامًا لا نفهمه ! أو كلامًا من سقَط المتاع ! .

فكيف بالصوت الجميل، إذا كان يسكب فى آذاننا هذا الشىء الساحر، الذى يُسمّى شعراً ، والذى يعدّ أرقى فنون الجمال ؟ !

إن « السمع » أوجد لنا أرفع فنون الجمال : « الشعر والموسيقى والبلاغة » كما يقول « جويو » [٣] .

وهو يدين بأرفع مزاياه الجمالية إلى الصوت ؛ لأنه خير وسيلة للتفاهم بين الكائنات الحية ، وبذلك اكتسب قيمته الاجتماعية .

فغرائز التعاطف والاجتماع ؛ هى الأساس فى كل المتع الجمالية التى تحسّها الأذن ، فأجمل ما فى الصوت بالنسبة للكائن الحىّ ، هو أنه تعبير فى جوهره ، فبه نقاسم الآخرين أفراحهم وآلامهم بوجه خاص ، كما أن اللهجة

(١) النجوم الزاهرة — ٢ — ٢٤١ .
(٢) مصارع العشاق — ١٢ .
(٣) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٦٥ — ٦٦ .

أجمل شيء بالنسبة للأذن ، وأنت تعلم أن اللهجة هي التعبير المباشر النابض عن العاطفة .

واللهجة هي العنصر الأساسيّ كذلك في فنّ الدراسة ، فالألم الذي يعبّر عنه بالصوت ، يؤثر فينا على وجه العموم تأثيراً روحيًّا ، أبلغ من تأثير الألم الذي يعبَّر عنه بقسمات الوجه ، وحتى الحركات ! .

والشعر نفسه ليس في حقيقة أمره ، إلا جملة من الكلمات المختارة ، يقصد بها الشاعر أن يهزّ الأذن هزًّا أقوى ! فكأنها تحمل في ذاتها لهجتها الخاصة .

وقد فطن صاحب « نقد النثر »[1] إلى أثر الإنشاد الحسن في تحسين الشعر ، فقال : ومما يزيد في حسن الشعر ، ويمكّن له حلاوة في الصدر ، حسن الإنشاد وحلاوة النغمة .

ويقول في موضع آخر – مفرّقا بين الشعر والخطابة – : وليس يلتفت في الخطابة إلى حلاوة النغمة ، إذا كان الصوت جَهِيراً ؛ لأن حلاوة النغمة ، إنما تراد في التلحين والإنشاد دون غيرهما .

ويقول في موضع آخر : ومما يزيد في حسن الخطابة ، وجلالة موقعها : جهارة الصوت ؛ فإنه من أجلّ أوصاف الخطباء ، ولذلك قال الشاعر :

جهير الكلام جهير العُطاس جهير الرُّواءِ جهير النَّغَمْ

وقال آخر :

إن صاح يوماً حسبت الصخر مُنْحدِراً والريحَ عاصفةً والموجَ يلتطم

وذم آخر بعض الخطباء برقة الصوت وضآلته ، فقال :

ومن عجب الأَيام أَنْ قمتَ خاطباً وأَنت ضئيلُ الجسم مُنْتفِخ السَّحْر[3]

---

(١) نقد النثر – ٩٠ .
(٢) المصدر نفسه – ١٠٩ .
(٣) السحر – كسطر وسبب وقفل – : الرئة .

وفى تفضيل الجهارة فى الخطيب؛ يقول شبَّة بن عِقال — يعقب خطبته عند سليمان بن علىّ العباسىّ — :

أَلا ليت أُمَّ الجَهْم واللهُ سامعٌ ترى حيث كانتْ بالعراق مُقامى
عشيةَ بذَّ الناسَ جَهْرى ومنطِقى وبذَّ كلامَ الناطقين كلامى[١]

وقال طحلاء يمدح معاوية بالجَهارة ، وبجودة الخطبة :

رَكوبُ المنابر وثَّابُها مِعَنٌّ بخطبته مِجْهَرُ[٢]
تَريغ إليه هَوَادى الكلام إذا ضَلَّ خُطْبَته المِهْذَر[٣]

والسرّ فى هذا يرجع إلى ما قلناه: من أن الشعر توءم الغناء ، ومن لوازمه حسن الإنشاد ، الذى يحلو بحلاوة الصوت اللين المطرب ! بخلاف الخطابة التى تقوم على النَّبر الفحل ، والصوت الضخم الجهير ، لا النغم الهامس الرقيق .

ويقولون : إنه لما زال أمر مروان بن محمد،الملقب بمروان الحمار ، آخر ملوك بنى أمية ، أتى المنصور بخواصه ، وفيهم عبد الحميد الكاتب ، والبعلبكى المؤذّن ، وسلاّم الحادى ، فهمّ بقتلهم ! .

فقال سلام : استبقنى — يا أمير المؤمنين — فإنى أُحْسِن الحُداء!

قال : وما بلغ من حُدائك ؟ .

قال : تعمد إلى إبل فتظمئها ثلاثة أيام ، ثم توردها الماء ! .

فإذا بدأت تشرب ، رفعت صوتى بالحُداء ، فترفع رءوسها وتدع الشرب ، ثم لا تشرب حتى أسكت ! .

---

(١) بذ : فاق .

(٢) معن — بكسر ففتح ونون مشددة —: تعرض له الخطبة فيخطبها مقتضباً لها .

(٣) تريغ إليه — بفتح التاء — : ترجع . وهوادى الكلام : أوائله .

فأمر المنصور بإبل ففعل بها ذلك ، فكان الأمر على ما قال !

فاستبقاه وأجازه ، وأجرى عليه رزقاً !

وقال البعلبكي : استبقني – يا أمير المؤمنين – فإني مؤذّن منقطع القرين !

قال : وما بلغ من أذانك ؟

قال : تأمر جارية ، فتقدّم إليك طَسْتاً ، وتأخذ بيدها إبريقاً ، وتصبّ الماء على يدك ؛ فأبتدئ بالأذان ، فتدهَش ، ويذهب عقلها ، حتى تُلقى الإبريق من يدها ، وهي لا تعلم ! .

فأمر المنصور جارية ففعلت ذلك ، وأذّن البعلبكي ، فكان الأمر كما وصف .

فاستبقاه ، وأجازه ، ووصله[1] .

ولم يقبل – مع الأسف – من عبقريّ الكتابة « عبد الحميد » عذراً ، مع أنه أهمّ من زميليه !

فأمر بقتله على أقبح صورة ، وأشنع مُثْلة !

فإذا كان الأذان بالصوت النديّ ، له هذا الأثر البالغ في النفوس !

وإذا كان حُسْن الحداء بشعر ساذَج ، يفعل في العجماوات هذا الفعل الغريب ! فما الظن بالإنشاد الجميل ، في النفوس العاقلة الحسَّاسة الذوّاقة ؟ !

---

(١) أمراء البيان – ٤٧ .

الفصل التاسع

حسن الهيئة والشارة

أن يكون نظيف الثياب ، أنيق الهندام ، حسن الهيئة ، عطِر الرائحة ! إلى أشياء أخرى معنوية أوردها ابن رشيق فى قوله[1] : من حُكْم الشاعر : أن يكون حلو الشمائل ، حسن الأخلاق ، طَلْق الوجه ، بعيد الغور ، مأمون الجانب ، سهل الناحية ، وطىء الأكناف ؛ فإنّ ذلك مما يحبّبه إلى الناس ويزيّنه فى عيونهم ، ويقرّبه من قلوبهم ! وليكن مع ذلك : شريف النفس ، لطيف الحسّ ، عَزوب الهمة[2] ، لطيف البِزّة ؛ لتهابه العامة ، ويدخل فى جملة الخاصة ، فلا تمجّه أبصارهم ، سمح اليدين . . .

فأنت تراه جعل من آداب الشاعر ، أن يكون لطيف البزّة .

ويحضرنا فى ذلك : أن جعفراً البرمكىّ ، وصل أشجع السُّلمىّ بعشرة آلاف درهم — وكان أشجع يحب الثياب — فكان يكترى الخلعة فى كل يوم بدرهمين فيلبسها أياماً ، ثم يكترى غيرها وهكذا ! ثم ابتاع ثياباً كثيرة بباب الكَرْخ لنفسه ولعياله وعيال إخوته ، حتى أنفق المبلغ كله كما حدّث بنفسه[3] .

وكان ابن ميّادة عطِراً لبّاساً !

وكان يزيد بن الطَّثريَّة ، يعنَى بترجيل جُمّته ؛ فترف كأنها السّلاسل !

وكان فى العباس بن الأحنف ؛ آلات الظرف : من جمال المنظر ، ونظافة الثوب ، وفراهة المركب ، وحسن الألفاظ ! .

وقد قال بعض أهل الهند — بعد أن عرّف البلاغة — وزَيْنُ ذلك كله

---

(١) العمدة — ١ — ١٣١ .

(٢) عزوب الهمة : بعيدها .

(٣) معاهد التنصيص — ٢ — ١٣٤ .

وبهاؤه ، وحلاوته وسناؤه ، : أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدّلة ، واللهجة نقيّة ، فإن وافق ذلك : السنّ ، والسَّمت ، والجمال ، وطول الصمت ، فقد تمّ كل التّمام ، وكمل كل الكمال ! .

فجعل للسَّمت — وهو حسن الهيئة — وللجمال ، أثراً فى قبول الكلام والتفتُّح له ! .

بين الشعر والخطابة فى السمت :

ولكن سهل بن هارون لم يشترط ذلك فى الخطابة ، فقال : لو أنّ رجلين خطَبا أو تحدّثا ، أو احتجّا ، أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا جليلا بَهيّاً ، ذا لباس نبيلا ، وذا حسب شريفاً ، وكان الآخر قليلا ، قميئاً[١] وباذّ[٢] الهيئة دميماً ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلامهما فى مقدارٍ واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدّع[٣] عنهم الجمع ، وعامّتهم تقضى للقليل الدميم ، على النبيل الجسيم! وللباذّ الهيئة ، على ذى الهيئة ! ولشغَلهم التعجّب منه ، عن مساواة صاحبه ! ولصار التعجّب منه ، سبباً للعجَب به ! ولكان الإكثار فى شأنه ، علة للإكثار فى مدحه ؛ لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أيئس ، ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ما قدروه ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم ، وكبُر فى عيونهم ؛ لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب ، كان أبعد فى الوهم ! وكلما كان أبعد فى الوهم ، كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ! .

ونخرج من كل ذلك : على أن جمال الهندام ، وحسن الشارة ، وأناقة الملبس ، مشروطة فى الشاعر لا الخطيب ! كما أن الخطيب يجب أن تتوافر فيه جهارة الصوت ؛ كما يجب أن تتوافر حلاوة النغم ، وعذوبة الصوت فى الشاعر !

وتعليل ذلك سهل ؛ إذا عرفنا :

---

(١) القميء : الضئيل الحقير .

(٢) باذ الهيئة — بتشديد الذال — : رث الثياب .

(٣) التصدع : التفرق .

أولا : أن الشعر : فن لطيف ظريف ، رشيق مترَف ؛ فينبغى أن يصحبه ما يوائمه ويشاكله من الأدوات الحسية والمعنوية .

وثانيًا : أن الشعر من بضائع الخاصة لا العامَّة ، والذى يخالط الخاصة ، يجب أن يتزيًّا بزيِّهم ، ويكون على هيئاتهم وشاراتهم ، وإلا كان غريبًا عليهم ، فاستزرَوْه ومجّوه !

ومع ذلك ، فمن الصعب علينا ؛ أن نسلِّم : بأن الناس يُقبلون على الخطيب القليل ، الضئيل الحقير ، الرثّ الثياب الدميم ، أكثر مما يقبلون على الخطيب الجميل ، الجليل ، النبيل ، البهىّ الطلعة ، الحسن الملبس .

هذا مما تنكره الطباع القويمة ، والأذواق السليمة ، وإذا صح إقبالهم عليه ، فلعله يكون من باب إقبالهم على شىء يلهيهم ويضحكهم ؛ كما يجتمعون لمشاهدة قرد يرقص ، أو حمار غريب الأوصاف !

وصفوة القول : أن إجماعهم واقع ، على أن الشاعر يجب أن تجتمع له سمات الأناقة والبهاء .

معسكر الكرم ومعسكر البخل !

وقد اجتمعت هذه السمات المتقدمة فى شعراء كثيرين ، منهم : أشجع السلمى ، وأبو نواس ، ومسلم بن الوليد ، ودعبل الخزاعى ، والحسين ابن الضحاك ، والعباس بن الأحنف .

وقد كان المال يتدفق على أكثرهم تدفّق السيل من خزائن الخلفاء والأمراء والولاة والوزراء ، فلا يدخرون منه شيئًا ! وعاشوا فى نعيم ورفاهية !

ولقد عرف عن أبى نواس : أنه كان محظوظًا لا يدرى ما وصل إليه ! لكنه كان متلافًا سمحًا جواداً ! وكان يتنافس فى الإنفاق مع العباس بن الأحنف ، وصريع الغوانى : مسلم بن الوليد ! .

على حين كان مروان بن أبى حفصة ــ وقد أعطى مائة ألف دينار ثلاث مرات[1] ــ غير الأعطيات الأخرى ــ وأبو العتاهية ، يعيشون عيش البخلاء

(١) عصر المأمون ــ ٢ ــ ٢٩٦ .

الجشعين ، ويكنزون الذهب والفضة ، حتى كان مروان يشترى الخبز من البقَّال : أى أنه لا يخبز فى بيته ؛ شأن أهل اليسار !

فلما سمع بقصته يحيى بن خالد البرمكى ، أحضره ووبَّخه ، وقال له : والله ، لَلْبخل أسوأ عليك أثراً من الفقر لو صرت إليه ، فلا تبخل ! .

وكان المهدى يعطى مروان وسَلم الخاسر عطية واحدة ، فكان سلم يأتى إلى باب المهدى على البرزوْن الفاره ، قيمته عشرة آلاف درهم بسرج وبلجام ، ولباسه الخز والوشى ، وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه ! ويجىء مروان بن أبى حفصة ، عليه فرو كثير الصوف وسراويل وعمامة من كِرْباس ، وخف كثير الصوف ، وكساء غليظ ، وهو منتن الرائحة ! وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم[1] إليه بخلا ، فإذا قرِم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله ، فقال له قائل : أراك لا تأكل إلا الرأس ! قال : نعم أعرف سعره ، فآمن خيانة الغلام ، ولا أشترى لحماً فيأكله ويطبخ منه ! والرأس آكل منه ألواناً : آكل من عينيه لوناً ، ومن غلصمته لوناً ، ومن دماغه لوناً .

وقد كان أبو العتاهية — على أشعاره الزهديات المشهورة ، وتذكيره الناس بالموت ، وتحقير الدنيا لهم — أقبح شأناً من مروان ! فقد كان لا يخرج زكاة ماله ! ويعدّ نفقة أولاده زكاة تجزئ عنه ! .

وكان يأكل خبزاً يابساً من رُقاق الفطير ، ويغمسه فى اللبن فلا يعلق به شىء ! ولذلك كانوا يقولون : أبو العتاهية لا يأتدم !

وكان له جار ضعيف سيئ الحال ، يلتقط النوى ! وكان يمرّ به طرفى النار ! ومكث على هذه الحال عشرين سنة ! حتى مات الرجل ولم يتصدق عليه بدانق ! بل كان يتصدق عليه بالدعاء ! و « الدعاء إحدى الصدقتين » ولكن ممَّن لا يملك شيئاً .

وكان له خادم يشقى فى خدمته كل الشقاء ، ولا يُجرى عليه غير رغيفين فى اليوم ! .

---

(١) القرم — كسبب — شدة شهوة اللحم .

وظل الخادم جائعًا صابراً حتى مات ! فكفنّه فى إزار وفراش له بال ! .

فقال له ، محمد بن عيسى المخزومى : سبحان الله ! خادم قديم الحرمة ، طويل الخدمة ، واجب الحقّ ؛ تكفنّه فى ثوب خلق ؛ وكان يكفيه دينار ؟ ! .

فقال : إنه يصير إلى البلى ، والحى أولى بالجديد من الميت ! .

فقال له المخزومى : يرحمك الله — أبا إسحاق — ! فقد عوّدته الاقتصاد حيًّا وميتاً[1] ! .

ولا يقل عن هؤلاء بخلا وتقتيراً مع كثرة كسبه : أبو عبادة البحترىّ ! ومن العجيب أن يخرج منه — مع قذارته — هذا الشعر الذى يشبه الوشى المنشور ، والزهر المنضور ! ولكن أليس النرجس يخرج من البصل ، ويلتقط الماس من الفحم ! إن مثل مروان وأبى العتاهية وأمثالهما قديمًا وحديثًا ، لا يستحقون أن تروى أشعارهم !

وهم سبة للشعر ، وحِطّة للشعراء ! وصدق أحمد بن أبى فنن حيث يقول :

وإنَّ أَحقَّ الناس باللوم شاعر   يلوم على البخل الرجالَ ويبخَل

وفى معناه يقول أبو تمام :

أَأَلوم من بَخِلتْ يداه وأَغتدى   للبُخْل تِرْباً ساءَ ذاك صنيعا[2]

---

(١) أبو العتاهية للأستاذ محمد برانق — ٦٧ — ٦٨ — ٦٩ .

(٢) الترب : من ولد معك ، والمراد : الصديق .

الفصل العاشر

اختيار البحور المناسبة

أن يختار البحور التى توائم صوته قوة وضعفاً ؛ فالشاعر الطاعن فى السن والشاعر الضعيف الجسم ، والشاعر الخفيض الصوت ، والشاعر المريض بأمراض الصدر « كالربو والنزلات الشعبية » وغيرها ، يعجزهم أن ينشدوا من البحر الطويل، أو البحر البسيط ، لطولهما الذى يجعلهما أشبه شىء بالخطبة، حتى ليحتاج المنشد لهما ، أن يلتقط أنفاسه عقب كل بيت ! .

والأول :

فعولن مفاعيل فعولن مفاعل : مرتين .

والثانى :

مستفعل فاعلن مستفعل فعلن : مرتين .

فهما كما ترى أكثر البحور طولا ، وهما لذلك لا يستطيع أن يسبح فيهما إلا ذو صدر قوى عريض ، ونَفَس مديد ، وحنجرة ضخمة ؛ يستطيع صاحبها أن يسمع الصفوف النائية ، ويملأ الآذان جلبَة وجلجلة ! فيشدّ السامعين إليه ، فلا ينصرفون عنه .

وخير لمن لم يرزق موهبة الصوت ، أن يلجأ إلى البحور المتوسطة الطول كالكامل والرجز والوافر والخفيف ، أو القصيرة كالرمل والمتقارب والمجتث ، أو المجزوءات ، وكل شاعر أعرف بنفسه .

وقد كنت فى شبابى أختار للإنشاء والإنشاد البحور الطويلة — وبخاصة الطويل — الذى أحبه بطبعى ، وتنساق معه عواطفى ، حتى لتذرف دموعى

حين أقرأ شعراً منه ، أو أنظم شعراً منه !

ثم شعرت فى الكهولة وما بعدها : أن صوتى لا يواتينى على الإنشاد من هذه البحور ، فعمدت إلى قصار الأوزان ، وسبحان من يغير ولا يتغير ! .

. . . . ومن ذا الذى يا عَزُّ لا يتغيّر

وبصرف النظر عن المنشد ، لا ريب أن لبحور الشعر وأوزانه أثراً فى الأداء ، وفى قوة الأسلوب ، وموسيقى العبارة ؛ فقد كان ابن العميد يرى أن الشعراء المحدثين ؛ لا يحسنون القول من بحر المديد ، وأن على الشاعر أن يتخير للمعنى الذى اعتمده وقصده ، أحسن وزن يلائمه ، وأحسن قافية .

وتقطيع بحر المديد هو :

فاعلاتن فاعل فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن[١]

مثل[٢] :

يا طويلَ الهجر لا تَنْسَ وصْلى واشتغالى بلك عن كلّ شُغْل

يا هلالاً فوق جيد غزالٍ وقضيباً تحتَه دِعْصُ رمل[٣]

وابن العميد صادق فى هذا ؛ فأنا لم أقرأ شعراً فى هذا البحر إلا ما جاء فى التمثيل له ، ولم أقرأ لشاعر من شعراء العصر بيتًا واحداً منه على ما أظنّ ! وأنا لا أستطيع النظم منه ، لأنه يشتبه علىّ بالبحر الخفيف ، وهو :

فاعلاتن مستفعلن فاعلات : مرتين .

والبحر المضارع : قليل الاستعمال جدًّا ، ومنهم من لم يعده بحراً ، ولا جاء فيه شعر معروف ! وقيل : إنه لم يسمع من العرب . ويقول العتابى فى

---

(١) العقد الفريد — ٤ — ٤٩ .

(٢) المديد : مجزوء كله وله ثلاثة أعاريض وستة أضرب ، وقد مثلنا للعروض والضرب المجزوءين .

(٣) الدعص والدعصة —بكسر الدال— : قطعة من الرمل مستديرة ، والكثيب المجتمع ، أو الصغير .

كتابه « نزهة الأبصار فى أوزان الأشعار » : إن الخليل جعله جنساً ، وأحسبه قاسه ، وما أدرى ما روى فى كتب العروض : أمصنوع هو ، أم مسموع من العرب [١] ؟

ولا شكّ أن هناك صلة بين المعانى والأعاريض الشعرية [٢] ؛ فمن المعانى ما هو جادّ أو حارّ أو جيّاش أو صاخب ! فلا يؤدَّى إلا بنفَس طويل ، ولا تلائمه إلاّ الأعاريض الطويلة .

ومنها ما هو رقيق ، أو هادئ ، أو ماجن ، أو راقص ؛ فيجب أن يصاغ فى تفاعيل تناسبه .

فالبحر الطويل مثلا يتّسع لكثير من المعانى ؛ فيصلح للفخر والحماسة والرثاء ، والوصف والتاريخ ، والشكوى والألم ، والنظرات الكونية .

والبسيط يقرب من الطويل ، وإن كان لا يتّسع مثله لاستيعاب المعانى ، ولا يلين لينه للتصرف فى التراكيب ، مع تساوى أجزاء البحرين ، ولكنه يفوقه رقة وجزالة ، ولهذا قلّ فى شعر الجاهلية ، وكثر فى شعر المولَّدين .

وقد كان لبحر الطويل فى عصور الفحولة والقوة ، القِدْح المعلَّى بين البحور فى كثرة النظم منه ؛ فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربى القديم من هذا الوزن .

وهو وأخوه البسيط يعدان بحرى الجزالة والفخامة ؛ فيغلب على المنظوم منهما الرصانة ، والمتانة ، وشدّة الأسر ، وروعة السَّرد ، وصلابة الحوك ؛ ولذلك يحتاجان إلى ثقافة لغوية ضخمة . وثروة من الأخيلة والمعانى واسعة ، لا تتفق لكل شاعر .

فالنظم منهما مزلّة للشاعر الضّحل ، القليل الحظ من الأساليب العربية ، وامتحان قاس من الخير ألاّ يدخله إلا الفائقون ؛ لأن كلا منهما فى الواقع بمثابة

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة — ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٢) انظر مقدمة الإلياذة للبستانى — تاريخ النقد الأدبى للمرحوم طه إبراهيم — أصول النقد الأدبى للشايب — موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس .

خطبة — وإن كانت خطبة شعرية — لا بد أن تصاغ صياغة خاصة ، وتستدعى تعبيرات كثيرة ، وأفكاراً جمّة ، ومسالك دقيقة ! .

وأدنى نظرة إلى الأبيات الآتية — وهى من الطويل ثم من البسيط — تدلّ على هذا :

يقول الفرزدق :

لنا العزّةُ القَعْساءُ والعددُ الّذى عليه إذا عُدّ الحصى يتخلّف

ومنّا الذى لا ينطق الناس عندَه ولكن هو المستأذَن المتصرِّف

ترى الناسَ ماسِرْنا يسيرون خَلْفَنا وإن نحن أومأْنا إلى الناس وقّفوا

وتقول حُرَقة بنت النعمان بن المنذر :

فبينا نسوس الناسَ والأَمرُ أَمرُنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصّف

فتبًّا لدنيا لا يدوم نعيمها تَقلَّب تاراتٍ بنا وتَصرّف

ويقول إبراهيم بن العباس الصولى — على لسان المتوكل العباسىّ إلى أهل حمص — :

أَناةٌ فإن لم تُغْنِ عقّب بعدَها وعيدًا فإن لم يُغْن أَغنتْ عزائمُه

ويقول المتنبى :

نفور عرتها نفرَةٌ فتجاذبت سوالفُها والحَلْيُ والخَصْر والرِّدف

ويقول أبو فراس الحمدانى :

وللوفر مِتلافٌ ، وللحمد جامع وللشرّ ترّاك ، وللخير فاعل

ويقول ابن مقلة :

فَهَبْك عدوِّى لا صديقى فربّما رأيت الأَعادى يرحمون الأَعاديا

ويقول المعرى :

ثلاثة أَيام هى الدهر كلُّه وما هنَّ غيرُ الأَمس واليوم والغد

ويقول شوقى :

من خانه الدهر خانته صنائعه وعاد ذنباً له ما كان إِحسانا

ويقول :

هو الدهر ميلادٌ فشغل فمأتم فذِكر كما أَبقى الصَّدى ذاهب الصوت

ويقول العقاد فى الشاعر :

تجمعت الأَضداد فيه فحكمة وحمق ، وقلب ذائب ، وجمود

ويقول :

قل لابن تسعين لا تحزن فذا رجل دون الثلاثين قد ساواك فى الهرم

ويقول الأعشى :

غَرّاء فرعاء مصقولٌ عَوارضُها تَمْشِى الهوينَى كما يمشى الوَجِى الوَحِل

وتقول الخنساء :

حمّال ألويةٍ ، هبَّاط أَودويةٍ شَهّاد أَنديةِ للجيش جرّارُ

ويقول أبو تمام :

السيف أَصدق أَنباء من الكتب فى حَدِّه الحدُّ بين الجِدّ واللعب

ويقول ابن الرومى :

أَجْنَتْ لك الوجدَ أَغصانٌ وكُثْبانُ فيهنَّ نوعان : تفاحٌ ورُمّان

ويقول الطغرائى :

غاض الوفاءُ وفاض الغدرُ وانفرجت مسافةُ الخُلْف بين القول والعمل

ويقول ابن نُباتة :

هذا كلامى وذا حظّى فيا عجَبا منى لثروة لفظٍ ، وافتقار يد

ويقول البوصيرىّ يمدح الرسول — عليه الصلاة والسلام — :

كالزَّهر فى ترَف والبدر فى شرَف والبحر فى كرم ، والدهر فى همم

فهذه الأبيات السالفة التى اخترتها من محفوظى دون تروّ ونظر ، ومثلها كل جيّد من هذين البحرين ، تراها قوية النسج ، محكمة الصياغة ، جزلة البناء ، مشحونة بالمعانى والأفكار والأخيلة والحكم ، إلى ضروب من البلاغات كالجناس والطباق ، وحسن التقسيم ، وحسن النَّسق ، والتَّوشيع وغيرها ، مما ساعد على وجوده ؛ اتساع دائرة البيت ، وامتداد طرفيْه .

ومنها ما يختصر قصة ، أو يصور تاريخًا ، أو يتضمَّن تجارب عدّة ، أو يقع فصلا فى قضية إلى غير ذلك .

والكامل يصلح لأكثر الموضوعات ، وهو فى الخبر أجود منه فى الإنشاء وأقرب إلى الرقة ، لذلك يصلح لقصّ الأخبار ، وللمعانى التقريرية . وإذا دخله الحذف وجاد نظمه ، بات مطربًا مرقّصًا كقولهم :

يادمية نُصِبَتْ لمعتكف بل ظبية أَوفت على شرف

وكقول ابن عبد ربه :

أَما الخليط فشدّ ما ذهبوا بانوا ولم يقضوا الذى يجب

فالدار بعدَهم كوَشْم يد يا دارُ فيك وفيهم العجَبُ

وكذلك إذا كان الضرب أحذّ مضمراً ؛ كقول ابن عبد ربه :

يوم المحب لطوله شهر والشهر يُحسب أنَّه دهر

والكامل هو البحر المفضل لشوقى ، ومحمود غنيم ، وأنا لا أميل إليه ، ولا تستجيب إليه عواطفى ، ونظمى منه قليل .

والوافر ألين البحور : يشتد إذا شدّدته ، ويرق إذا رققته ، وأكثر ما يجود به النظم فى الفخر ، وفيه تجود المراثى .

والخفيف أخفّ البحور على الطبع ، وأطلاها للسمع ، يشبه الوافر ليناً ، ولكنه أكثر سهولة وأقرب انسجاماً ، وإذا جاد نظمه رأيته سهلا ممتعاً ؛ لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنثور ، وليس فى جميع بحور الشعر بحر نظيره ، يصلح للتصرف بجميع المعانى .

وهو البحر المفضّل للجارم ولى .

والرّمَل : بحر الرقة ، فيجود نظمه فى الأحزان والأفراح والزّهريات ، ولهذا لعب به الأندلسيون كلّ ملعَب ، وأخرجوا منه ضروب الموشحات .

وهو غير كثير فى الشعر الجاهلى .

ومن أمثلته :

أَنا فى اللَّذة مخلوع العِذارِ هائم فى حبّ ظبى ذى احورارِ

صفرة فى حمرة فى خده جمعت روضة وردٍ ، وبَهار

والسريع : بحر يتدفق سلاسة وعذوبة ، فيحسن فيه الوصف ، وتمثيل العواطف الفياضة ، وهو قليل فى الشعر الجاهلى ، ومن أمثلته :

بكيت حتى لم أَدع عبرةً إذ حملوا الهودج فوق القَلوص

بكاء يعقوب على يوسف حتى شفى غلَّته بالقميص

والمتقارب : بحر فيه رنّة ونغمة مطربة ، على شدة مأنوسة ، وهو أصلح للعنف والسير السريع !

والمتدارك : يصلح لزحف جيش ، أو وقع مطر أو سلاح ، وهو قليل في الشعر القديم .

والرجز : ويسمونه : حمارة الشعراء ! وهو صالح لنظم العلوم كالفقه والنحو والمنطق ، فهو أسهل البحور نظماً ، وأقلها ملاءمة لتصوير الانفعالات .

وأنا أصرّح : بأن الرجز ليس بأسهل من غيره إلا فى نظم « المتون » وأشباهها. وأما حين يتعلق الأمر بأغراض الشعر الأصيلة المتفجرة من قرارة الوجدانات ، النافحة بعبق العواطف ، فغيره أيسر وأطوع وأدمث ، ولو رحنا نستفتى جمهرة الشعراء المطبوعين لتابعونا على ذلك ، وأنا يثقل علىّ النظم منه ، لذلك لم أخضه إلا قليلا[1] .

والهزج ، والمجتث ، والمقتضب ، وسائر البحور القصيرة ، تصلح للأناشيد والتوشيحات الخفيفة ، وأفكار الهزل والمجون .

مثال الهزج :

أَيا من لام فى الحبِّ ولم يعلم جوى قلبى
إلى هند صبا قلبى وهندٌ مثلُها يُصْبى

مثال المنسرح :

كأنّما بات ناعماً جَذِلا فى جنة الخلد من يعانقها
دعنى أمت من هوى مخدَّرة تعلَق نفسى بها علائقها

مثال المقتضب :

يا مليحة الدّعَج هل لديك من فرج

(١) انظر فن الأسجاع – ١ – ١٨ – ١٩ – ٢٠ .

مثال المجتث :

وشادن ذى دلال معصَّب بالجمال
يضنّ أَن يحتويه معى ظلامُ الليالى

مثال المتقارب :

سل الربع عن ساكنيه فإنى خرِست فما أَستطيع السؤالا
ولا تعُجلنِّى هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

وبحور الخليل — كما هو معروف — خمسة عشر وزنًا ، وزاد الأخفش بحر المتدارك ، وابتدع العباسيون من عكس الدوائر ستة بحور هى المستطيل وهو مقلوب الطويل ، والممتد وهو مقلوب المديد ، والمتوافر وهو محرف الرمل ، والمتّئد وهو مقلوب المجتث ، والمطرد والمنسرد وهما صورتان من مقلوب المضارع .

وقد انفرد أبو العتاهية باستحداث وزن حاكى به مدق القصّار[١] ، وقال على غراره :

للمنون دائرات يُدِرْن صَرْفها حتى ينتقينا واحدًا واحدا

وقد انتقد عليه : بأنه خرج عن العروض! فقال : «أنا أكبر من العروض » .

العلة فى تسمية البحور :

تسمية البحور لم تأت اعتباطًا ، وإنما هى مشتقة من صفاتها .

فعن الأخفش قال : سألت الخليل — بعد أن عمل كتاب العروض — : لم سميت الطويل طويلا ؟ .

قال : لأنه طال بتمام أجزائه .

قلت : فالبسيط ؟ قال : لأنه انبسط عن مدى الطويل ، وجاء وسطه

(١) القصار — كشداد — : محور الثياب .

« فَعِلن » وآخره « فعلن » .

قلت : فالمديد ؟ قال : لتمدّد سُباعيّه حول خُماسيّه .

قلت : فالوافر ؟ قال : لوفور أجزائه وتداً بوتد .

قلت فالكامل ؟ قال : لأن فيه ثلاثين حركة ، لم تجتمع فى غيره من الشعر .

قلت : فالهزج ؟ قال : لأنه يضطرب ؛ شُبّه بهزج الصوت .

قلت : فالرجز ؟ قال : لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام .

قلت : فالرمَل ؟ قال : لأنه شبِّه برمل[١] الحصير : لضم بعضه إلى بعض .

قلت : فالسريع ؟ قال : لأنه يسرع على اللسان .

قلت : فالمنسرح ؟ قال : لانسراحه وسهولته .

قلت : فالخفيف ؟ قال : لأنه أخفّ السّباعيّات .

قلت : فالمقتضب ؟ قال : لأنه اقتضب من السريع .

قلت : فالمضارع ؟ قال : لأنه ضارع المقتضب .

قلت : فالمجتث ؟ قال : لأنه اجتث : أى قطع من طويل دائرته .

قلت : فالمتقارب ؟ قال : لتقارب أجزائه ؛ لأنها خماسية كلها يشبه بعضها بعضاً[٢] .

ويجب أن يكون معروفاً : أنه ليس هناك قيمة للعروض ولا للبحور — على اختلاف ضروبها وأعاريضها — إذا لم يكن الشاعر مطبوعاً ! إنه بدون الطبع والملكة ، سيغرق فى هذه البحور ويختنق ! .

إن الشعراء المطبوعين يقرضون الشعر على ما خيّلت نفوسهم ، ويجرون فيها وراء الموسيقية ، التى تنبع من قلوبهم ، وتقودهم إلى ما يريدون من غير كدّ وجهد ، ولا تعمل واجتلاب .

---

(١) رمل الحصير : خوصها .

(٢) العمدة — ١ — ٨٩ .

وكثير منهم يجهل هذه البحور ، ولا يعرف منها إلا أسماءها ، وإذا سألته عن البحر الذى صاغ منه قصيدته ، أجاب بأنه لا يعرفه ! وكثير منهم يعرفها ولا يستشيرها حين ينظم ، إلا إذا اشتبه عليه الأمر فى بيت من الأبيات! وأستطيع أن أجزم بأننى لم أحتج قط إلى العروض ، حتى فى عهد القـَرْزمة[١] ! بل حملت نفسى على نسيان ما عرفت منه بحكم الدراسة .

وكثير ما يسألنى تلاميذى عن أنواع من البحور القصيرة ، التى نظمت منها بعض شعرى ، فأحيلهم على أساتذة العروض بالكلية ! فإذا كان بعض الشعراء درس العروض ، فإن ذلك من باب العلم بالشىء ، وليكمل نفسه بمعرفة ما يمتّ إلى الشعر بسبب ، وبخاصة أن بعض الشعراء ؛ كبشّار والمتنبى والسُّلامى وناجى والأسمر ، نظموا الشعر فى سنّ صغيرة ، لا تسمح لهم بفهم العروض .

وعلـْما الوزن والقوافى — وإن خصّا الشعر وحده — فليست الضرورة داعية إليهما ، لسهولة وجودهما فى طباع أكثر الناس من غير تعلّم .

ومما يدلّ على ذلك : أن جميع الشعر الجيد المستشهَد به ، إنَّما هو لمن قبل وضْع الكتب فى العروض والقوافى ، ولو كانت الضرورة إلى ذلك داعية لكان جميع هذا الشعر فاسداً أو أكثره .

ثم ما نرى أيضًا من استغناء الناس عن هذا العلم ، بعد واضعيه إلى هذا الوقت ؛ فإن من يعلمه ومن لا يعلمه ، ليس يعوّل فى شعر إذا أراد إلاّ على ذوقه ، دون الرجوع إليه ، فكأن هذا العلم مما يقال فيه : إن الجهل به غير ضائر ! وما كانت هذه حاله ، فليست تدعو إليه ضرورة[٢] !

والذى نعْنيه : أن الشعراء المطبوعين ، تقودهم إلى صحة الوزن ؛ رهافة أذواقهم ، وسلامة طباعهم ، واستقامة سلائقهم ، وصفاء ملكاتهم ، وإن وقعوا فى خلل ، فسرعان ما يعودون إلى الصواب ، بهداية حاستهم الفنية النافذة التى لا تُسيغ النَّشاذ !

---

(١) القرزمة : أى وقت نظم الشعر الأول غير الجيد .

(٢) نقد الشعر — ١٢ .

ومن قول ابن رشيق فى هذا : وقد ذكرت ما يليق بهذا الموضع ؛ ليعرفه المتعلم إن شاء غير متكلف به شعراً ، إلاّ ما ساعد عليه الطبع ، وصحّ له فيه الذوق ؛ لأنى وجدت تكلف العمل بالعلم فى كل أمر من الأمور أوفق إلا فى الشعر خاصة ، فإن عمله بالطبع دون العروض أجود ؛ لما فى العروض من المسامحة فى الزِّحاف ، وهو مما يهجّن الشعر ، ويذهب برونقه[١].

إن أساس الشعر الطبع ، ولا ينفع مصنوع ما لم يكن مطبوع ، وإذا عدم الإنسان هذه المنحة العلوية ، فمن الحزم له أن يتجه إلى غيرها من الصناعات ، فإن النفوس لا تحمل بالقوة على ما تكره ، ولا تستجيب إلى غير دواعى الفطرة ، وذلك كالزناد الخالى من النار ، لا يورى مهما ألححت عليه بالقدح ، وكالسيف الباتر لا يعمل إلا فى يدى بطل !! .

وما أجمل قول بعضهم :

وترى الحسامَ على جراءَة حدّه ‏ ‏ ‏ مثل الجبان بكفّ كل جبان

ولله در المعرى حيث يقول :

وليس كقضيب الهِنْد إلا كنابتٍ ‏ ‏ ‏ من القَضْب فى كفّ الهِدان المُعَرِّد[٢]

وما أحسن قول البارودى :

إذا القلبُ لم ينصرْك فى كلِّ موطِنٍ ‏ ‏ ‏ فما السيفُ إلاّ آلةٌ حَمْلُها إدّ[٣]

ويقول المبرد : ليس أحد فى زمانى إلاّ وهو يسألنى عن مشكل من معانى القرآن والحديث ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية ؛ فأنا إمام الناس فى زمانى هذا ! وإذا عرضت لى حاجة إلى بعض إخوانى ، وأردت أن أكتب إليه

---

(١) العمدة – ١ – ٩٩ .

(٢) قضيب الهند : السيف . والقضب : من معانيه القت . والهدان ، ككتاب : الأحمق الثقيل . والمعرد : الهارب .

(٣) الإد – بكسر الهمزة وتشديد الدال – : الأمر الفظيع والداهية والمنكر .

شيئًا فى أمرها ، أحجم عن ذلك ؛ لأنى أرتّب المعنى فى نفسى ، ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ ، فلا أستطيع ذلك ! .

ويقول ابن « دقيق العيد » لتلميذه « ابن سيد الناس » قل لهؤلاء « علماء المعانى والبيان والبديع » : أتحسنون أن تقولوا مثل قول المتنبى — وفيه مقابلة خمسة بخمسة —؟ :

أَزورهم وسوادُ اللَّيل يشفع لى   وأَنْثنى وبياضُ الصُّبح يُغْرِى بى

ويسمونه : أمير شعر المتنبى !

فإن قالوا لك : لا ! .

فقل : أىّ فائدة فيما تصنعونه ؟

يريد بذلك : أن العمل غير العلم ، والمباشرة دون الوصف !

وأن الملكة غير التَّصنع والتَّصنيع !

فأنت ترى — مما سلف — أن معرفة العروض قد تضرّ الشاعر الملهم المطبوع الموهوب ، وتعكِّر صفو فطرته ، وتلبّد سماءها بالغيوم ، وتقيِّد انطلاقه الموسيقى وتضع السُّدود أمام تحرّره وتدفّقه ! وتسوقه إلى ارتكاب بعض الزحافات والرُّخَص التى تشوِّه الوزن ، وتغضّ من إيقاعه العذب ، وتوقع الاضطراب فى تنغيمه ، ولولا معرفته بها ما أقدم على ارتكابها !

وهى وإن كانت جائزة عروضيًّا ، فليس كل ما يجوز وقوعه ، يجوز فعله !

ولم أَر فى عيوب الناس عَيْباً   كنقص القادرين على التَّمام

الفصل الحادى عشر

اختيار القوافى

أن يختار القوافى الخفيفة الظلّ ، الحلوة النغمة ، العذبة الرّنين ؛ فإنّ حظّ جودة القافية — وإن كانت مفردة — أرفع من حظ سائر البيت ؛ كما يقول شبيب بن شيبة [1] .

وهى قوام الشعر وملاكه ، وأظهر سماته ، وأشرف أجزائه .

وهى شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية [2] .

ثم ألا ترى أن العناية فى الشعر ، إنما هى بالقوافى ، لأنها المقاطع ، وفى السجع كمثل ذلك .

وآخر السَّجعة والقافية أشرف عندهم من أوّلها ، والعناية بها أمسّ ، والحشدُ عليها أوفى وأهمّ ! .

ولذلك كلما تطرّف الحرف فى القافية ، ازدادوا به عناية ، ومحافظة على حكمه [3] .

وإذا كان نقَّاد العرب يقولون عنها : إن الشعر لا يسمَّى شعراً بدونها ، فإن لها مكانتها أيضًا عند نقاد الغرب ! « فهوجو » يقول : هى مبدأ أوزاننا .

و « سانت بيف » يقول : هى الانسجام الوحيد فى الشعر .

وفى معجم الأدب الروسى المترجم إلى الإنجليزية يقول المترجمون : إن

---

(١) البيان والتبيين — ١ — ١٠٦ .

(٢) العمدة — ١ — ٩٩ .

(٣) الخصائص — ١ — ٨٥ — ٨٦ .

اللغة الروسية غنيَّة بالقوافى إلى الحد الذى يسمح بتكرار القافية فى المقاطع المتوالية مرتين وثلاثاً ، وأكثر من ذلك فى بعض الأبيات .

ويجب على الشاعر بعد ذلك ؛ أن يتجنَّب ما أنكر على من تقدَّموه من العيوب المعروفة .

وقد فخر بعض الشعراء بخلوّ شعرهم منها ! فقال ذو الرّمة :

وشعر قد أَرِقْت له طريفٍ أُجنِّبه المُسانَد والمُحالا[١]

وقال جرير :

فلا إقواءَ إذ مَرَس القوافى بأَفواه الرُّواة ولا سِنادا[٢]

وقال عدِىّ بن الرّقاع العاملىّ :

وقصيدة قد بتُّ أَجمع بينَها حتى أُقوِّم مَيْلَها وسِنادها

نظرَ المثقِّف فى كُعوب قَناته حتى يُقيم ثِقافُه مُنْآدها[٣]

وقال السيد الحميرىّ :

وإنَّ لسانى مِقْولٌ لا يخوننى وإنِّى لما آتِى من الأَمر مُتْقِنُ

أَحوك ولا أُقْوِى ولست بلاحنٍ وكم قائلٍ للشعر يُقْوِى ويَلْحُن[٤]

وقال إسحاق الموصلى — وذكر قصيدة — :

فلما أَقمتُ المَيْلَ منها ولم أَدَعْ بها أَوَدًا ممّا يُعاب ولاكَسْرا

---

(١) المساند : ما فيه سناد ، وهو اختلاف الردفين فى الشعر مثل لين – بكسر اللام – وبين – بفتح الباء – والمحال : الباطل .

(٢) مرس القوافى : مأخوذ من مرس الحبل من باب نصر ، إذا وقع فى أحد جانبى البكرة ، والمراد : صعوبتها . والإقواء : مخالفة القوافى برفع بيت وجر آخر .

(٣) المنآد : المائل .

(٤) أقوى : أتى بالإقواء ، وهو مخالفة القوافى برفع بيت وجر آخر .

أَتَيْتك أُهْدِيها إِليك تَقَرُّبا ... وشكرًا لنُعْمى منك تستغرق الشُّكْرا

وقال أبو العَمَيْثَل :

أَقمت اعْوِجاجَ الشعر حتى تركته ... قِداحَ ثِقَافَىْ نابلٍ وابن نابلِ[1]

فدونكماه لا بمنتشِر القُوَى ... ضعيفٍ ، ولا مستغلق مُتعاظِلِ

قصائد أَشْباهٌ كأَنَّ مُتونَها ... متونُ أَنابيبِ الوَشيج العَواملِ[2]

وقال أبو تمام :

مُنَزَّهةٌ عن السَّرَق المُورَّى ... مُكَرَّمة عن المعنى المُعادِ

وقال أبو حاتم سهل بن محمد السِّجستانى :

خذْها إِليك هديّةً من شاعرٍ ... لا يَستَشيب ثوابَها إِهداؤه

نَظْم ابن آداب تَنَخَّلَ شعره ... لم يَمْحُ رونقَ شعرِه إِكفاؤُه[3]

لم يُقْوِ فيه ولم يُسانِدْه ولم ... يُوطِئْ فَيُوهِي نظمَه إِيطاؤه[4]

وقد ذكروا : أن ذا الرمة دخل مسجد الكوفة — حين قدِمها — فرمى ببصره فرأى الكميت والطِّرِمَّاح فقصدهما .

ثم جلس وقال للكميت : أَسْمِعنى شيئًا يا أبا المستهِلّ ، فأنشده قوله :

أَبَتْ هذه النَّفسُ إلاّ ادّكارا ... .

حتى على آخرها .

---

(١) القداح : السهام قبل أن تراش ؛ جمع قدح بالكسر . والنابل : صاحب النبال وصانعها .

(٢) الوشيج : شجر الرماح . والعوامل : صدور الرماح .

(٣) الإكفاء : تنويع الروى بحرفين متقاربين فى المخرج مثل الليل وانتقين .

(٤) يوطىء : واطأ فى الشعر ، وأوطأ فيه وأوطأه : كرر القافية لفظاً ومعنى قبل سبعة أبيات .

فقال ذو الرمّة : أحسنت يا أبا المستهل في ترقيص هذه القوافي ! .
ولا شك أن ترقيص القوافي يجعلها ترقص سامعها ! .

عيوب القوافى :

وللقوافي عيوب كثيرة يجب أن يعرفها الشعراء حتّى يتجنّبوها ، ولا سيّما شعراء الإنشاد ؛ لأنها تجعله قبيحًا في الأسماع ! بل إنها تسكّها سَكًّا ! منها :

التخنث :

ويروون في هذا : أن قيس بن الرقيّات ، أنشد عبد الملك بن مروان قوله :

إنَّ الحوادثَ بالمدينة قد أَوْجَعْنَنى وقَرَعْن مَرْوَتِيَهْ[١]
وجَبَبْنَنى جبَّ السَّنام ولم يتركْن ريشاً في مَناكِبِيَه

فقال له: أحسنت ! لولا أنك خنَّثْت في قوافيك![٢] .
وللوأواء الدمشقي قصيدتان ، تعدّان الغاية في التخنث ومطلع الأولى :

طاف بشمسيْن من عُقَارَيْن في ذهبيّيْن جَوْهريّيْن

ومطلع الثانية :

صَوْلجَ لاَمَيْن في عِذَارَيْن في ذَهبيَّيْن جوهريّين[٣]

ولصفيّ الدين الحلّي ، قصيدة سخيفة ، عددها أربعة وعشرون بيتًا ، أولها :

---

(١) قرع مروته : دق وضرب . والمروة : الحجر الأبيض البراق يورى النار ، كناية عن إضعافه وإيهانه .
(٢) المزهر – ٢ – ٢٣٣ .
(٣) العذار : شعر الخد ، ويشبه باللام ، وصولجه : جعله كالصولجان .

نُقَيْطٌ من مُسَيْك فى وُرَيْدٍ خُوَيْلك أَو وُسَيْمٌ فى خُدَيْد(١)

ولابن منير الطرابلسىّ؛ قصيدة طويلة من هذا النوع المخنَّث القوافى أولها :

مَنْ ركَّب البدرَ فى صدر الرُّدَيْنِىِّ ومَــوَّه السِّحرَ فى حدّ اليمانىّ(٢) ؟

ويحسن أن يختار القوافى التى فيها مدٌّ قبل الروىّ وبعده ، فهذا المدّ يعطى للمنشد فرصة؛ لاستغلال مواهبه الصوتية فى الإنشاد، استغلالاً ينشُر فى الجوّ ضجة وجلَبة شديدتين ! .

ويتَّصل بذلك الشعر المخنث ما يسمَّى بالشعر البارد ، كقول الفَنْد الرُّمانى :

أَيا تَمْلِكُ يا تَمْلِى وذاتَ الطَّوْق والحِجْلِ(٣)
ذَرينى وذِرى عَذْلى فإنَّ العذلَ كالقتل

ومن البارد المفرط فى اللين، قول بعضهم :

يا ربّ قد عيل صبرى وضاق بالحبّ صدرى
واشتدّ شوقى ووجدى وسيدى ليس يدرى
مُغَفَّــل عن عذابى وليس يرحم ضُرّى
إن كان أُعْطِىَ صبْرًا فلست أَملك صبرى
أَنا الفِدى لغزال دنا فقبَّل نحرى
وقال لى من قريب ياليت بيتك قبرى

---

(١) يريد : أخالك : نقط من المسك فى الورد ، أم هووسم فى الخد ؟

(٢) الردينى : الرمح منسوب إلى ردينة زوجة سمهر وكانا يصنعان الرماح .

(٣) الحجل – بكسر الحاءوفتحها – : الخلخال .

وقالوا : أبرد ما قيل ؛ قول أبي الشيص :

وناعس لو يذوق الحب مانعَسا بلى عسى أن يرى طيفَ الحبيب عسى
وللهوى جرسٌ يُنْفِى الرُّقادُ به فكلّما كدت أُغفِى حرّك الجرسا

فمثل هذا الشعر لو أنشد فى ناد أو سامر ، لما جُوزى صاحبه بأقلّ من أن يؤخذ برجله ويجر ! .

ومن قول بعضهم : الشعر : شعران : جيد محكَّك — أى منقح — وردىء مضحك ! . ولا شىء أثقل من الشعر الوسط ، والغناء الوسط ! وقد قال ابن الرومىّ يهجو ابن طيفور :

عدمتك يابن أَبِى الطاهر وأُطْعِمت ثكلك من شاعر
فما أَنت سُخْن ولا بارد وما بين ذاك سوى الفاتر
وأَنت لذلك تُغْثِى النفوس تغثية الفاتر الخاثر

الاستدعاء :

وهو ألا يكون للقافية فائدة إلاّ كونها قافية فقط ! فتخلو حينئذ من المعنى كقول عدىّ القرشىّ — أنشده قدامة — :

ووُقيتَ الحتوفَ من وارثٍ وا لٍ وأَبقاك صالحا ربُّ هود

فإنه لم يأت لهود النبى — عليه السلام — ههنا معنى إلاّ كونه قافية ! .
وما أعجب قول السيد الحميرى :

أقسم بالفجر وبالعشر والشفع ووتر ورب لقمانِ
فى مُنْزَلٍ محكَمٍ ناطق بنور آيات وبرهان
فالفجر فجرُ الصبح والعشر عشر النَّحر والشفع نجيّان
محمد وابن أَبِى طالب والوتر ربّ العزة اليانى

بانى سمواتٍ بناها بلا   تقدير إنس لا ولا جان

وفيها يقول ابن رشيق : فانظر إلى قوله : « رب لقمان » ما أكثر قلقه وأشد ركاكته ! .

وأما قوله : البانى ، فقد خرج فيه من حدّ اللين والبرد ، وتجاوز فيه الغاية فى ثقل الروح ! والله حَسْبه ! وهذا أقلّ ما فى تكلف القوافى الشاردة ، إذا ركبها غير فارسها ، وراضها غير سائسها[1] !

والعجب من ابن رشيق : كيف وقف عند عيبه كلمتين فقط ؟ وكان الأولى به — وهو ناقد حصيف — أن يقول : إن الشعر كله مقززٌ ، مثير للغثيان ؛ بل كان الأحجى ألا يرويه ولا يهجِّن به كتابه ، ولولا ما حوى من أسماء جليلة ، لوجب أن يطرح فى الزبالات !

---

(١) العمدة — ٥٨ — ٥٩ .

الفصل الثاني عشر

تجنب حروف الروى الكريهة

أن يتجنب حروف الرويّ الكريهة البشعة ، التى تصدم الآذان ، وتُغْشِى النفس ، وتخدش الحاسة الفنّية ! .

وهى على الترتيب : الثاء ، والخاء ، والذال ، والزاى ، والشين ، والصاد ، والطاء ، والظاء ، والغين ، والواو .

وفى ذلك يقول المعرى فى مقدمة اللزوميات[1] : فأما المتقدمون فقلّما ينظمون بالرويّ حروف المعجم ؛ لأن ما روى من شعر امرئ القيس ، لا نعلم فيه شيئًا عن الطّاء ، ولا الظّاء ، ولا الشّين ، ولا الخاء ، ونحو ذلك من حروف المعجم .

وكذلك ديوان النابغة ليس فيه رويّ بنى على الصّاد والضّاد والطّاء ، ولا كثير من نظائرهن ! .

وهذا شىء ليس يخفى .

والمحدّثون أكثر تحققا بالنظام ، لأن فيهم قومًا مستبحرين يكون ديوان أحدهم فى العِدّة كدواوين كثيرة من أشعار العرب . وهذا أبو عبادة البحترى — وله شعر جمّ — ولا أعلم فيما رُوى له شيئًا على الخاء ولا الغين والثاء ؛ إلا أن يكون شاذًّا لم يثبت فى أكثر النّسخ .

ولاستثقال بعض الحروف ، كانت الكلمات الأكثر استعمالا ثلاثية ، والمهمل فيها قليل ، ثم يليها الرباعى ، وأما الخماسى فالمستعمل منه نادر ، ولم يأت خماسى الأصول فى القرآن الكريم ، إلا ماكان اسماً لنبيّ عُرِّب اسمه ، مثل إبراهيم وإسماعيل ؛ ولهذا لم يؤلف الواضع بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين ، ولا بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الراء والسين .

---

(١) اللزوميات — ١ — ٢٤ .

ويقول ابن الأثير [١] : واعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يتجنبا ما يضيق به مجال الكلام فى بعض الحروف ؛ كالثاء ، والذال ، والخاء ، والشّين ، والصّاد ، والطّاء ، والظّاء ، والغين ، فإن فى الحروف الباقية لمندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها .

والناظم فى ذلك أشدّ ملامة ؛ لأنه يتعرض لأن ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة ، فيأتى فى أكثرها بالبشع الكريه ، الذى يمجّه السمع ، لعدم استعماله ؛ كما فعل أبو تمام فى قصيدته الثائية التى مطلعها :

قف بالطلول الدارسات علاثا [٢] .

وله قصائد من الشين ، والصاد ، والظاء .

وكما فعل أبو الطيب فى قصيدته الشينية التى مطلعها :

مَبيتى من دمشق على فراش :

وله قصائد من الذال ، والزاى .

وكما فعل ابن هانئ فى قصيدته الخائية الطويلة التى مطلعها :

سرَى وجناحُ الليل أقتم أفتخ .

ولابن الرومى قصيدة من الخاء يمدح فيها العلويين ويهجو بنى العباس ، وله قصائد من روى الثاء ، والذال ، والزّاى ، والشين ، والصاد ، والواو .

والناظم لا يعاب إذا لم ينظم من هذه الأحرف فى شعره ! بل يعاب إذا نظمها وجاءت كريهة مستبشعة ! .

إن الشعر يحتاج إلى حلاوة وطلاوة كما قال ابن الخياط الدمشقى [٣] :

يُحتاج فى الشعر إلى طلاوهْ والشعر ما لم يك ذا حلاوهْ

فإنما سماعه شَقاوهْ

وأما الناثر فإنه أقرب حالا من الناظم ؛ لأن غاية ما يأتى به سجعتان أو

---

(١) المثل السائر — ٦٩ .

(٢) علاث — بكسر العين — : اسم شخص .

(٣) البيان والتبيين — ١ — ٧٢ .

ثلاث أو أربع على حرف من هذه الأحرف ، وما يعدم فى ذلك ما يروق ، إذا كان بهذه العدة اليسيرة ، فإن كلفت — أيها الشاعر — أن تنظم شيئاً على هذه الحروف ، فقل : هذه الحروف هى مَقاتل الفصاحة ، وعذرى واضح فى تركها ؛ فإنّ واضع اللغة لم يضع عليها ألفاظاً تعذب فى الفم ، ولا تلذّ فى السمع ، والذى هو بهذه الصفة منها ، فإنّما هو قليل جداً ، ولا يصاغ منها إلا مقاطيع أبيات من الشعر ، وأما القصائد المقصَّدة ، فلا تصاغ منه ، وإن صيغت جاء أكثرها بشعاً كريهاً ! .

على أن هذه الحروف متفاوتة فى كراهة الاستعمال ، وأشدها كراهية أربعة أحرف ، وهى :

الخاء ، والصاد ، والظاء ، والغين .

وأما الثاء ، والذال ، والشين ، والطاء ، فإن الأمر فيهنّ أقرب حالا .

ويلاحظ : أن ابن الأثير لم يذكر الزاى ولا الواو ، ولا تقلان ثقلاً عن أخواتهما !

وليست كراهة هذه الألفاظ فى أجراسها الغليظة المنفّرة فقط ، فإن لها عيباً آخر هو قلتها فى اللغة العربية ، فإذا نظم الشاعر منها ضيّق على نفسه ما وسّعه الله عليه ، فإما أن يكتفى بالمقطوعات التى لا تستوعب غرضه كله ، وإما أن يعيدها بنفسها ؛ فيعيد قبحاً مرتين ! .

ويقول الجاحظ : فأما اقتران الحروف ؛ فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير .

والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الصاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير .

وأقول : قد تتبعت هذه الحروف فى الشعر ، فوجدت أنه لا يأتى بها إلا الشعراء الذين ينقصهم الذوق السليم !

أو الذين يقصدون التفاصح والتشادق والتّفيْهق ! .

أو الذين يريدون المباراة والمساجلة

أو الشعراء الملتزمون ما لا يلزم ؛ كالمعرى ، والبارودى ، ومن إليهما .

ويلحق بهما الشاعر القاضى أبو المجد المعرى — أخو أبى العلاء — وقد نظم

من الثاء ، والزاى ، والصاد ، والطاء ، والظاء ، والغين[١] ؟

وابن قسيم الحموى من شعراء الخريدة[٢] ؛ وقد نظم من الذال ، والشين ، والصاد ، والظاء ، والغين ، والواو .

وقصيدته الواوية تبلغ واحداً وعشرين بيتًا ، نظمها ردًّا على قصيدة واوية كتب بها إليه ابن منير الطرابلسىّ .

ومن قصيدة الحموىّ :

يا شاعرًا أَودعَتْ أَناملُه درَّ القوافى كتابَه النَّبَوِى

لو كان إبليس قبلُ لاح له آدمُ من نَقْش فصِّكِ الغَرَوِى

لخرّ ما شئتَ ساجدًا وعَنَا لله طوعاً وكان غيرَ غَوِى

والدهر قد مات منه حادثُه خوفاً ، فأَنَّى يكون غيرسَوِى

ويظهر أن ابن قسيم الحموى ؛ كان مولعًا بالإغراب فى القوافى ! فمن ذلك أنّ له قصيدة من تسعة أبيات ، قصد أن لا تخلو منها كلمة من صاد ، وكلمة من سين ! وفى الأبيات تعسف كما يقول العماد[٣] !

ومن أبيات القصيدة :

تُصغى لتستمع اصطخا بَ لسانه الصُّمُّ السّوادرْ

وصل السّجاحة بالصَّبا حة سالبٌ بالصوت ساحر

وله مقطوعة على خمسة أوزان ، وخمس قواف ، وهى[٤] :

قل للأَمير أَخى الندى • والنائل • الهطال • الشعراء• والقُصّاد

لا زلت تنتهك العِدى • بالذّابل • العَسّال • فى الأَحشاء • والأَكباد

ووُقِيت من صرف الرّدى • والنازل • المغتال بالأَعداء • والحسّاد

---

(١) الأوراق — ١ — ١١ إلخ .

(٢) الخريدة — ١ — ٤٣٣ .

(٣) الخريدة — ١ — ٤٤٧ .

(٤) المصدر نفسه — ١ — ٤٤٤ .

ومن ذلك النوع المستكره الذى ينفر منه الطبع ، وينبو عنه السمع ، قصيدة لأبى حزام العُكْلى[١] — وكان فى زمن المهدى — فى مدح أبى عبيد الله كاتب المهدى ، أولها :

تذكّرتُ سلمى وإهلاسَها فلم أنس والشّوقُ ذو مَطرُؤْ

وفيها يقول :

لَأَوْحَى وزيرُ إمام الهدى لنا وهو بالإرْب ذو مَحْجُؤه
يسوس الأمور فتأتى له وما فى عزيمته مَنْهُؤه
وَفَى بالأَمانة صفو التُّقى وما الصفو بالرّنَق المحمؤه
وعند معاوية المصطفى حَيًا غير ماحٍ ولا مطرؤه [٢]
فقال الوزير الأَمين انظموا قريضاً عويصاً على لؤلؤه
فعبّرت مرتفِقاً وحيَه لغير انصباب إلى المشكؤه[٣]
سيُدني من الحق ذو فطنة معى فى العواقب والمبدُؤه
بيُوتاً علىّ لها وجهة بغير السِّناد ولا المكفؤه[٤]

ومن ذلك ما أنشده ابن الأعرابى لمحمد بن علقمة التَّيْمىّ — يقولها لرجل من كلب يقال له ابن الفنشخ[٥] :

أَفْرِخْ أَخا كلبٍ وأَفْرِخْ أَفرخِ أَخطأت وجهَ الحقّ فى التَّطَخْطُخ [٦]

---

(١) الموشح — ٣٥٤ .

(٢) مطرؤة : غير طارىء .

(٣) المشكؤه : الشكوى .

(٤) المكفؤه : الإكفاء ، وقد مر تعريفه .

(٥) الموشح — ٣٥٤ .

(٦) الطخطخة : تسوية الشىء وضم بعضه إلى بعض .

أَما وربّ الرّاقصات الزُّمَّخ يخرجن من بين الجبال الشُّمَّخ(١)
يزرن بيتَ الله عند المصرَخ لَتمطِخَنَّ برشاء مِمْطَخ(٢)
ماءً سوى مائىَ يا بن الفَنْشَخ أو لَتجيبَنَّ بوشى بَخْ بَخٍ(٣)
من كيس ذى كيْس مِئنٍّ مِنْفَخ قد ضمه حَوْلَيْن لم يسنَّخ(٤)
ضَمَّ الصَّماليخ صِماخ الأَصلخ(٥)

ومما جاء من قافية الظاء: ما ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، قال : صنع أبو دلف: القاسم بن عيسى العجلى ما يأتى :

أَنا أَبودلف البادِى بقافية جوابُها يُعْجز الداهى من الغيظ.
من زاد فيها له رَحْلى وراحلتى وخاتمى والمدى فيها إلى القيظ.

قال ابن عبد ربه : وظن أنه لا ثالث لهاتين القافيتين ، فصنعت :

قد زدتُ فيها ولو أمسى أَبو دلف والنفس قد أَشرفت منه على الفيظ.(٦)

ويقول ابن ظافر — معلّقا على ذلك — وقد تذاكرنا بهذه الرقعة ، فقال بعض الحاضرين: لم تبق رابعة فصنعت :

قد زدت فيها ولو ماتا بغيظهما ما أَلقت النمل أَحياناً من البيظ.(٧)

ثم صنع القاضى الأعز بن المؤيد بعد ذلك بديها :

---

(١) الزمخ : الشوامخ .
(٢) المصرخ : الاستغاثة . ومطخ الماء : متحه من البئر بالدلو .
(٣) بخ بخ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء ، أو الفخر والمدح .
(٤) مئن : جدير أن يقال فيه: إنه كذا، والمنفخ : الخطيب . ولم يسنخ : لميزنخ و يتسخ .
(٥) الأصلخ : الأصم جدا لا يسمع ألبتة .
(٦) الفيظ : كل ما يفيض من إناء وغيره فبالضاد ، إلا فيض النفس ، فإنه بالظاء .
(٧) البيظ : كل بيض لطائر أو حيوان فهو بالضاد ، إلا بيظ النمل فإنه بالظاء .

ذو الحزم لا يتعدّى فى فعائله ما دام للناس تكوين من البيظ[١]

ثم صنع شهاب الدين بن أخت الوزير نجم الدين :

يا سادتى فى القوافى قلَّما تركوا كماتح البئر لم يترك سوى البيظ [٢]
حازت قوافيكم الظاءات أجمعها كمثلما حِيز مُحٌّ البيظ بالبيظ[٣]
لكن مواعيد باديكم أَبى دلف لا صدق فيها كمثل الآل والبيظ[٤]

ويقول ابن ظافر : وأظن «صاحب العقد» وَهِم فى كون قائل البيتين أبا دلف العجلى ! فإن أبا دلف أفضل وأفصح وأفضل وأعلم وأشرف ، من أن يقع فى مثل هذا ! وأظن قائلهما أبا دلف : هاشم بن محمد الخزاعى الشاعر ، الذى كان والياً للبصرة ، من قبل المقتدر العباسىّ سنة خمس وثلاثمائة[٥] .
وأرى : أنه لامعنى لاستبعاد ابن ظافر أن يكون قائلهما أبو دلف العجلى ؛ لأن هذا كثيراً ما يحدث على جهة التفاصح والفكاهة ممن هم أجلّ وأعظم من أبى دلف ، ثم إن هذا لاينقص من قدر أبى دلف ، ولا قدر غيره .

وقد وقعت بين الوزير : أبى الحسن جعفر بن عثمان المصحفى ، وصاحب الشرطة : أبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى اللغوى مساجلة ظريفة بالظاء ، لا تخلو من الطرافة[٦] .

كما جاء من قافية الزاى قصيدة للصولى فى أيام النيروز ؛ رفعها إلى الخليفة الراضى وأنشدها إياه ، يبلغ عدد أبياتها تسعين بيتاً ! .

---

(١) البيظ هنا : ماء الرجل .
(٢) البيظ : بقية الماء فى نقرة البئر ، وهى الحفرة التى يبقى فيها الماء بعد نزحها .
(٣) البيظ : قشرة البيض الرقيقة فوق المح ، وهو المسمى بالغرقئ .
(٤) البيظ : خيال وجه الإنسان فى السيف .
(٥) بدائع البدائه — ١٥ — ١٥٣ .
(٦) المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب — ٦٥ .

ولما سمعها الراضى استحسنها . وقال : ما أعرف زائية مثلها ، بل لا أعرف زائية إلا للشّماخ ، وتلك عجوز وهذه شابّة !

ثم وصله أحسن صلة مع ندّ وعنبر ! .

ولا يمكن أن نوافق « الراضى » على أنها خير زائية إلا فى طولها فقط ! وأما القصيدة نفسها ؛ فقد حشيت بالكلمات الغريبة ، والوحشية ، والمتنافرة ! وهذا شيء لا بدّ منه ؛ لأن الكلمات الزائية محدودة ! .

ويكفى أن يكون من قصيدة الصولى هذه الكلمات : الكوز . الشيروز ، الماحوز ، معزوز ، مجلوز ، منكوز ، تكليز إلى غير ذلك .

ولعل أسلس أبياتها ، وأخفها على الأذن قوله :

بارك الله للأَمير أَبى العباس   خير الملوك فى النيروز
وأَراه أَولاده الغُرّ أَجدا   دًا بمُلْك نامٍ وعز عزيز
رَضِىَ الراضىَ الإِلهُ لملك   عزَّز الدين أَيَّما تعزيز

ومما جاء من حرف الشين قول الصولى :

غشيتنى من الهموم غواشى   لعذول يلوم فيك وواشى
لو يلاقوا الذى لقيت من الوجد   لشوق بين الجوانح ناشى
نمّ بالسرّ عنهم دمع عينى   إنَّ سرّ المحب بالدمع فاشى
مَن عذيرى من ظالم أنا منه   فى زمان الوصال للهجر خاشى
أَخذ القدّ من قضيب رطِيب   وحكى أَعين الظباء العطاش

وقد أنشدها أيضاً الخليفة الراضى فى إمارته ، فعمل الراضى فى قافيتها ومعناها .

فعمل الصولى أيضًا من قافيتها ، فعمل الراضى كذلك ! .

ولا أدرى سرّ كلف الصولى وخليفته الراضى بالعمل من هذا الروى العجيب ؟! .

ويلاحظ : أن حرف الشين — مع أنه من الحروف المكروهة — لا يقبح كثيراً إذا كانت القصيدة رقيقة البناء ، حلوة الصياغة ، لطيفة البحر ! ولذلك نرى الشعر الشعبي لم ينس نصيبه من قافية الشين ؛ وإنّنا لنشجَى من الأغنية الشعبيّة المشهورة :

قولوا لعين الشمس ما تحماشى　　　بكره غزال البرّ صابح ماشى

وكذلك نطرب كل الطرب من الأغنية التى تغنّيها مطربة الدنيا « أم كلثوم » والتى تنتهى بهذه الكلمة « مصحّنيش » .

ومن قافية الصاد ؛ قصيدة للصولى لها قصة ؛ وذلك أن الخليفة الراضى قد كان وعده « بفص » .

فلما استنجزه وعده ، طلب أن يكتب إليه بشعر صادىّ ، قافيته « الفص » فعمل قصيدة عدّتها ثمانية وأربعون بيتًا ، أولها :

ألا قل لخير الناس نفساً ووالدًا　　　ورهطاً وأجدادًا مقالةَ مختصّ

محمد المأمول والمقتدَى به الأمير　　　أبى العباس ذى الفضل لا النقص

ومن جمع الآداب بعد افتراقها　　　وثقّفها بالبحث منه وبالفحص[1]

والقصيدة فى جملتها ثقيلة الظل ، جامدة النسيم ، ومحال أن تكون غير ذلك ! .

ولا ندرى سرّ كلف الصولى بالعمل من هذا الروى الغليظ ، وإعجاب الراضى به ، ومتابعته عليه ؟ .

بل العجب من الراضى كيف يقترح على الصولى أمثال هذه القوافى السمجة ، وتقع منه بموقع ؟! مع أنه كان من الحكماء الأدباء ، والشعراء الحذّاق ! .

ويمكن أن نعتذر عنه ، بأنه كان يمتحن الصولى !

ولابن زيدون والمعرى قصيدتان طائيتان !

---

(١) الأوراق للصولى — ٢ — ٢٧ .

ثم جاء الحصفكي[١] ، فنظم قصيدة طائية تقليداً للمعرى ، أولها :

أَعذلك هذا أَن رأَيتهمُ شطُّوا   وفى الآلِ إذ غطَّوْا هوادجهم غطُّوا

وعدد أبياتها ستون بيتًا .

وقد كان منطق القوم – كما يقول الرافعى – يجرى على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها ، ولكن أصوات الحروف إنما تتنزّل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة فى جملتها كيف اتفقت ، فلا بد لها مع ذلك من نوع فى التركيب وجهة من التأليف ، حتى يمازج بعضها بعضاً ، ويأتلف منها شىء مع شىء ، فتتداخل خواصها ، وتجتمع صفاتها ويكون منها اللحن الموسيقى ، وهو لا يكون إلا من الترتيب الصوتى ، الذى يثير بعضه بعضاً على نسب معلومة ، ترجع إلى درجات الصوت وأبعاده[٢] .

ومن المحزن : أن غرام « البارودى» بالفخر : بأنه رب قلم كما أنه ربّ سيف! حداه أن ينتظم بالروى كلّ حروف المعجم تقريبًا ، فجاءت له قصائد على قافية الهمزة التى يختم بها الفعل ، وهى غاية فى الثقل ، كقوله :

وخميلة بكَرَتْ سَماوةُ أَيْكها   تحمِى الهجيرَ عن النفوس وتَدْرَأ

تَسْتَنُّ فيها الريحُ بين مَنابتٍ   خضراءَ يغشاها الجبانُ فيجرَأ

تستوقف الأَبصارَ فى غُدْرانها   صورٌ تزول مع النسيم وتطرأ

فالوُرْق تهتِف والرّباربُ ترتعى   والعِين تبغُم والبلابل تَصْرأ[٣]

شَجْراءَ تسلكها السَّمومُ فتغتدى   رَهْوًا ويسكنها الهجير فيمرَأ

فتح الربيعُ بها مدارسَ نزهةٍ   للعين فيها بهجة لا تَضْرَأ[٤]

---

(١) الخريدة – ٢ – ٥٠٣ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى – ٢٢٢ .

(٣) الربارب : قطعان الظباء . والعين بكسر العين – : واسعات العيون – يريد بقر الوحش . وتصرأ : تصيح .

(٤) لا تضرأ : لا تخفى .

وهذه الكلمات قلقة غير متمكنة ، زيادة على غرابتها وخشونتها فى الأسماع والصدور ! .

وذلك لأن الهمزة تحلو فى ختام الأسماء لا الأفعال ؛ كما فى « همزية البوصيرى » وشوقى وغيرهما .

هذا إلى كثرة الأسماء المهموزة الآخر فى اللغة العربية ، كالسماء والهواء والهناء مما يغنى الشاعر بالقوافى ، ويفسح له المجال فى النظم ! .

كما جاءت للبارودى قصائد مقصورات ، كما جاءت له — كما أسلفنا — قصائد من الروى النابى الشاذّ ، فزاد فى ذلك على أبى تمام والمتنبى وابن هانئ وابن قسيم الحموى وغيرهم ، وجارى المعرى فى ذلك إلى أبعد الغايات — وبينهما بون شاسع فى المحصول اللغوى — وأين النهر من القاموس المحيط ؟ .

ولم يقف عند هذا ، فعمد إلى لزوم ما لا يلزم ، اتّباعاً لشيخه شيخ المعرة أيضًا ! .

وبالرغم مما عرف عن البارودى من إحكام الصناعة ، ومتانة السَّرد ، وسلامة الديباجة ، فقد سيق مرغمًا إلى الوقوع فى بعض التكلف والغرابة والضعف والتهافت ، فى مواضع غير قليلة ؛ فى ظل هذا الالتزام ، الذى لم يلزمه به أحد ! وهما مما يبرأ منه سائر شعره المرصوف الحصيف ! هذا إلى أنه ضيَّق من خطوه ، وقصَّر من عنانه ، وكفّ من طِماحه ، وهو المشهود له بطول النَّفس ! .

وهذه الحروف المكروهة ، التى يبنى عليها الرّوى بعض الشعراء المتهوّرين ، ليست كراهتها مقصورة على الشعراء فقط ، بل هى مكروهة فى النثر أيضاً[1] ؛ بل هى أجدر أن تكره فى النثر أكثر ؛ لإمكان الاستغناء عنها ، إذ المندوحة فيه أوسع ، والميدان أفسح ، اللهم إلا فى المقامات فإن ذلك فيها مقصود إليه .

وحسبنا أن المعرى — على حبه للإغراب — قد ألف كتاب سيف الخطبة من جزءين ، يشتمل على خطب السنّة : فيه خطب للجمع والعيدين ، والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح ، وهى مؤلفة على حروف من حروف

---

(١) انظر الإدغام ومخارج الحروف فى شرح المفصل لابن يعيش ج ١٠ — ٢٣ إلخ .

المعجم ، ففيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ، والراء واللام والميم والنون .

وقد قال : وتركت الجيم والحاء وما يجرى مجراهما ؛ لأن الكلام المقول فى الجماعات ؛ ينبغى أن يكون سَجْسجا سهلا !

ومقدار هذه الخطب أربعون كراسة[١] .

(١) معجم الأدباء – ١٥٠ .

الفصل الثالث عشر

التصريع فى قصائد الإنشاد

أن يلتزم الشاعر المنشد التصريع فى قصائده .

وقد جاء فى اللغة : صرَع الشعر والباب وصرّعه – بالتخفيف والتشديد – : جعله ذا مصراعين .

وفى الاصطلاح : قال ابن الأثير : إنه فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور[1] .

وقال الخطيب[2] : هو جعل العروض[3] مقفّاة تقفية الضرب .

وهو مذهب الشعراء الفحول قديمًا وحديثًا ، إلا ذا الرمّة والفرزدق .

وموضعه المفضّل أول القصيدة ، وقد يهمل بعض الشعراء التصريع أول القصيدة ، ثم يأتى به بعد ذلك ، وهو تقصير ؛ كقول ذى الرمة :

أَدارًا بحُزْوَى هِجْتِ للعين عَبْرةً ... فماءُ الهوى يرفضّ أَو يترقرق

ثم قال بعد عدة أبيات :

أَم من ميّةَ اعتاد الخيال المُؤَرّق ... نعم إنَّه ممّا على النوم يَطْرُق

وقد يقع التّصريع فى أثناء القصيدة ، بعد التّصريع فى أوّلها ، وهو عندهم دليل على قدرة الشاعر وسعة بحره ، وقوة طبعه . وأكثر الشعراء ولوعًا بذلك

---

(١) المثل السائر – ٩٨ .

(٢) الإيضاح – ٢٨٠ .

(٣) العروض : اسم الجزء الأخير من نصف البيت الأول – وهى مؤنثة – والضرب : اسم الجزء الأخير من النصف الثانى .

امرؤ القيس ، ومن ذلك قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللِّوى بين الدَّخول فحومل

ثم قال :

أَفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أَزمعت صَرمى فأَجملى

ثم قال :

أَلا أَيها الليل الطويل أَلا انجل   بصبح وما الإِصباح منك بأَمثَل

وإن كان الأفضل عندهم ، أن يأتى به الشاعر فى أثناء القصيدة بعد التصريع فى أولها ، إذا خرج من قصة إلى قصة ، أو من وصف شىء إلى وصف شىء آخر ، إلى غير ذلك من الأغراض . فيكون كأنه شرع فى قصيدة جديدة .

والذى دعاهم إلى ذلك : أن القصيدة عندهم كانت تتألف من عدة أغراض تقليدية ؛ فمتى انتهى من غرض ، بدأ مطلعاً جديداً لغرض جديد .

والشعراء المحدثون ومن والاهم لم يحسّوا الحاجة إلى ذلك ؛ لعنايتهم بتلاحم الأبيات ، واعتبارهم القصيدة ، وحدة فنية غالباً ، ولهذا قلّلوا منه فى الوسط ، وإن حرصوا عليه فى البدء .

ولعل أكثر الشعراء المعاصرين ولوعا به فى الوسط : زميلنا المرحوم « محمد الأسمر » .

فهو يأتى به فى القصائد ، بل فى المقطوعات .

وفى مذهبي : أنه لا يصح أن يؤتى به فى الوسط أكثر من مرة فى القصيدة الطويلة ، كما فعل « عمرو بن كلثوم التغلبى » فى معلقته النّونية ، حيث يقول فى مطلعها :

أَلا هُبِّى بِصَحْنِك فاصْبَحينا   ولا تُبْقِى خُمورَ الأَنْدرينا

ثم يقول :

قِفِى قبلَ التَّفرُّق ياظعينا نخبِّرْك اليقينَ وتُخْبرينا

حين اتَّجه بالشعر إلى غرض آخر .

وأنا بطبعى لا أميل إليه فى غير أوائل القصائد ، وإن لم تخنى الذاكرة ؛ فإنى لم استعمله فى أثنائها قط ، فى أكثر من عشرة آلاف بيت ، فى ثلاثة دواوين مطبوعة ، وحتى فى القصائد التى جاوزت المائة ! .

قيمة التصريع

والتصريع — فى حقيقته — : ليس إلا ضربـًا من الموازنة والتعادل بين العروض والضَّرْب ، يتولَّد منها جـَرْس موسيقىّ رخيم ! .

وهو لذلك من أمس الحلى البديعية بالشعر ، وأقربها إليه نسبـًا ، وأوثقها به صلة .

ونحن حينما نـُرهف آذاننا للإنشاد من شاعر معروف ، فأول ما نتشوّف إليه ، ونترقبه منه ، هذا التصريع الذى يشبه مقدّمة موسيقية خفيفة قصيرة ، تلهب إحساسنا ، وتهيّئنا لاستماع قصيدته ، وتدلّنا على القافية التى اختارها ، فإن أغفله أو أتى به رديئـًا أو ركيكـًا ، خيّل إلينا أن شيئـًا من الجمال ، ترك مكانه شاغراً ! .

وإنك لتـهـَش ّ لقول المتنبى :

مغانى الشِّعْب طيباً فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان

نعم تهش ّ لهذا التصريع غير المتكلف .

كما تشعر بنبوّ أذنك عن قول حـُمـَيد بن ثـَوْر فى مطلع قصيدة له :

سلى الرَّبعَ أَنَّى يمّمت أُمُّ سالمِ وهل عادة للرّبع أَن يتكلَّما

وقول أبى نواس كذلك :

أَقِلْنى قد ندِمت على الذنوب　　　وبالإقــرار تبت عن الجحود

وتأمَّل بيت البحترى مثلا :

عذيرى فيك مِن لاح إذا ما　　　شكوت الحبّ قطَّعنى ملاماَ

فإنه لو قال مثلا :

. . . .　　　شكوت الحبَّ قطَّعنى عِتَابا

لفقد البيت كثيراً من موسيقاه وإيقاعه ! .

ومثله قول البارودى :

زمزمى الكأْس وهاتى　　　واسقنيهــا يا مَهاتى

فإنه يمكن أن يقال :

. . . .　　　واسقنيهــا يا حياتى

فلا يفقد البيت شيئًا من مائه ورُوائه ! .

ولكنه بلا شكّ يصبح « نشاذاً » إذا قيل :

. . . .　　　واسقنيهــا يا غزالى

ولم يفت الشعراء أن يُشيدوا بمنزلة التصريع ، وينوّهوا بقيمته ، فهذا أبو تمام يقول من قصيدة فى مدح أبى سعيد الطوسىّ :

وتقفو لىَ الجَدْوى بجدوى وإنَّما　　　يروقك بيْت الشعر وهو مصَرَّع

ويقول الثعالبى فى مدح شعر الأمير الميكالى :

وإذا تفتَّق نَوْرُ شعرك ناضرًا　　　فالحسن بين مُرَصَّع ومُصَرَّع

وهذا كلام جاء من جهة الاختصاص – كما يقولون – والشعراء أعرف بصنعتهم !

والشعراء المعاصرون الكبار ، يكادون يلتزمون التصريع إلاّ فى بعض المقاطيع ، وهى بحكم خفتها ، وقلة أبياتها ، ووحدة الغرض فيها ، ليس من الضرورىّ أن تصرع ، وإن جاء كثير منها مُصَرَّعا .

هذا إلى أن التّصريع جاء فى شعرهم بريئًا من الهُجْنة التى تلحقه ، كالإقواء[1] والسِّناد[2] ، والإيطاء[3] ، لتأنّقهم فى الصّياغة ، وتشدّدهم فى التّخْل والتّصفية ، ومجانبتهم ما أخذ على أسلافهم من العيوب ! .

وقد كان للعصر الذى يظلّهم أكبر الأثر فى ذلك ، فقد أمدّهم بكل أسباب الرّقّة والأناقة ، ووضع فى أيديهم كلّ وسائل التّثقيف والتهذيب ! .

(١) الإقواء : الاختلاف فى حركات الإعراب ؛ فيكون بعضها مثلا مرفوعاً ، وبعضها مجروراً ، وهو كثير فى الشعر الجاهلى .

(٢) السناد : اختلاف الحركات قبل الروى .

(٣) الإيطاء : أن يتفق معنى القافيتين فى قصيدة واحدة قبل سبعة أبيات .

الفصل الرابع عشر

حسن المطالع والمقاطع

أن يتوخى حسن المطلع والمقطع : أى حسن الابتداء ، وحسن الانتهاء ، ويسمى حسن المطلع أيضًا : براعة المطلع ، وبراعة الاستهلال ، وقد كان ابن العميد يقول : إنّ حُسْن الشعر ، المطالع والمقاطع !

حسن المطلع :

فأما حسن الابتداء، فهو أول ما يقرع أذن السامع ؛ فينشرح له صدره ، وتهتزّ له نفسه ، ويشعر له بأريحيّة وبهجة ؛ فيتشوّف لما يأتى بعده ، وينساق إلى الإصغاء إليه طواعية واختياراً ! ولا سيّما إذا كان الافتتاح مصوِّراً لجوّ القصيدة ، مترجمًا عنها ، ملخِّصًا لمغزاها ، فإنك حينما تقرأ مطلع قصيدة أبى تمام :

السيفُ أَصدقُ أنباءً من الكتُب ... فى حَدّه الحَدُّ بين الجِدّ واللعبِ

يُلقى فى روعك : أنها قصيدة حربية ، تقرر : أن للسيف الكلمة الأولى فى حسم المشكلات ، ودحر الأعداء ، ونيل الظفر الفاصل ، والنصر العزيز ! .

وإن الأقلام فى الواقع ليست إلاّ خدماً للسيوف ! كما يقول المتنبى :

حتى رجعت وأَقلامى قوائلُ لى ... المجد للسيف ليس المجد للقلم

اكْتُبْ بنا أَبدًا قبل الكتاب به ... فإنما نحن للأَسياف كالخدم

. . . .

من اقتضى بسوى الهندىِّ حاجتَه ... أَجاب كلَّ سؤال عن هَل «بلَم»[1]

(١) أى يقال له : هل فعلت كذا ، فيجيب : لم أفعل .

وهذا صحيح مسلَّم، فإن الحق يحتاج إلى قوة تؤازره ، وتاريخ البشرية يؤكد هذا .

وصدق الشاعر العصرى حيث يقول :

أَلا كلُّ شعبٍ ضائعٌ حقُّه سُدًى إذا لم يؤيّد حقَّه المِدْفعُ الضَّخم

والقصيدة قالها أبو تمامٍ فى فتح المعتصم لعمورية المدينة الرومية، فى قصة معروفة ، وقد أرجف المنجمون أنها لا تفتح إلا إذا نضج التين والعنب ، فلم يسمع المعتصم أقوالهم، وكان الفتح المبين !

ومطلع قصيدة المتنبى :

أَلا لا أُرِى الأَحداثَ مدحاً ولا ذَمَّا فما بطشُها جهلاً ، ولا كفُّها حِلما

تُفهمك أنها قصيدة حزينة ينفث بها مصدور ! فجعه الزمن فى شىء عزيز لديه ! فهو واجم كئيب ، واقف بين الصبر والجزع ، والتوجّع والاستسلام !

والشأن كذلك ، فقد صاغها المتنبى فى رثاء جدته ، وقد كان كتب إليها يسألها المسير إليه، بعد غيبة طويلة عنها! فحُمَّت من الفرح فماتت ! .

. . . ومن فرح النفس ما يقتل .

كما يقول المتنبى نفسه !

ومطلع قصيدته :

غيرى بأَكثر هذا الناسِ ينْخدِعُ إن قاتلوا جَبنوا أَوحدَّثوا شَجُعوا

أَهلُ الحفيظة إلاَّ أَن تجرِّبهم وفى التجارب بعد الغَىّ ما يزَع[1]

(١) الحفيظة : الحمية ، والغى : ضد الرشد . ويزع : يكف ويردع ؛ يقول: الناس أهل حمية ونخوة ما لم تجربهم، فإذا جربتهم أخلفوا ظنك !

يحدّثك : بأنه يذمّ أناساً مقاتلين ، يفخرون بالشجاعة والنجدة وقت السّلم ، فإذا شبّت المعركة وحميَ البأس ، لم يُغنوا فيها شيئاً ، وذهبت آمالك فيهم أدراج الرياح ، بعد أن غرّك بهم الغرور !

والأمر كذلك ، فالقصيدة تصف معركة بين سيف الدولة وبين الروم ، انهزم فيها جند سيف الدولة وفرّوا عنه ، حتى كاد يقع فى الأسر ! !

ومطلع قصيدة شوقى فى رثاء « عبده الحمولى » وهو :

طُوِى البساطُ وجَفَّت الأَقداحُ وغدت عواطلَ بعدك الأَفراحُ

فلو لم تعرف : أن الميت عبده الحمولى المغنّى ؛ لعرفت على كل حال : أنه يرثى مغنياً مرموق المكانة ، سنىّ المنزلة ، وإلا فهل يُطْوى بساط الراح ، وتجفّ الأقداح ، وتعطّل الأفراح ، لغير بلبل صداح ؟ !

ومطلع قصيدته فى وصف مرقص أقيم بقصر عابدين :

حفَّ كأْسَها الحبَبُ فهى فضةٌ ذهبُ

وهل تفتح قصيدة مرقص ؛ بأليق من هذا المطلع الخمرىّ النُّواسىّ الراقص المرقّص معاً ؟ !

وهل يتصور رقص بدون شراب ، يكلّله حبَاب ؟!

وقس على ذلك كثيراً من أمهات القصائد العربية .

وقد سئل بعضهم : مَن أحذق الشعراء ؟

فقال : من أجاد الابتداء والمطلع .

ويقول ابن رشيق : حسن الافتتاح ، داعية الانشراح ، ومطيّة النجاح .

ومن جودة المطالع أيضاً : أن يكون صدر البيت دالاّ على عجزه ؛ كالتصريد وما شاكله ، وذلك كقول عمرو بن معديكرب الزُّبيدى :

إذا لم تستطعْ شيئاً فدعْه وجـاوزْه إلى ما تستطيع

وقول آخر :

بالله يا ظبي بني الحارثِ هل مَنْ وفَى بالعهد كالناكثِ

وقول البحترى :

أَحلَّت دمى من غير جُرْم وحرَّمت بلا سَبب يومَ اللقاء كلامى
فليس الذى حلَّلتِه بمحلَّلٍ وليس الذى حرّمتِه بحرام

وقول آخر :

وإن كنتُ محتاجاً إلى الحلم إننى إلى الجهل فى بعض الأَحايين أَحرج
فلى فرسٌ للخير بالخير مُلجَمٌ ولى فرس للشّرّ بالشرّ مُسرَج
فمن رام تقويمى فإنّى مُقوَّم ومن رام تعويجى فإنى مُعوَّج

وفوق ذلك كله قوله — تعالى — : « وما كان الله ليظلمَهم ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون » .

وفى هذا ورد قولهم : البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره ، وآخره يرتبط بأوله .

وقد قال الشاعر :

خُذْها إذا أُنشدتْ فى القوم من طرَب صُدورُها عُرِفت منها قَوافيها

ومن قول ابن رشيق : ينبغى للشاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدلّ على ما عنده من أول وهلة .

ويذكرون : أن دِعبَلا الخُزاعىّ ، وديك الجن الحمصى ، اجتمعا فأنشده ديك الجن ابتداء قصيدة له وهو :

كأَنَّها ما كأَنَّه خَلَل الخُلَّة وَقْفُ الهَلوك إذ بَغَما(١)

---

(١) خلل — كسبب — : منفرج ما بين الشيئين : والخلة : ما فيه حلاوة من النبت . والوقف : سوار من عاج . والهلوك هنا : المتساقطة فى المشى .

ومعنى البيت : أن عشيقته ، كأنها فى جيدها وعينها ؛ الغزال الذى كأنه بين نبات الخُلَّة ؛ سوار الجارية الحسنة المشى ، المتهالكة فيه !

فلما سمع دعبل البيت ، قال له : أمسك ! فوالله ما ظننتك تُتم البيت ، إلا وقد غُشِي عليك ! أو تشكَّيت فكَّيْك ! ولكأنك فى جهنَّم تخاطب الزبانية ، أو قد تخبَّطك الشيطانُ من المس"[1] .

وقد صدق دعبل فهذا المطلع من أقبح ما يسمع ! ويجب الاحتراس من مثله !

مطالع حسنة :

ومن المطالع الحسنة قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسِقْط اللِّوى بين الدَّخول فحومل

وهو عندهم أفضل ابتداءٍ صنعه شاعر !

وقول النابغة :

كِلِينى لِهمٍّ يا أُمَيْمةُ ناصبِ وليلٍ أُقاسيه بطىء الكواكب

وقول أوْس بن حجَر :

أَيَّتها النفس أَجْملى جزَعا إنَّ الذى تحذرين قد وقعا

وقول بشار بن برد :

أَبىَ طَلَلٌ بالجِزْع أن يتكلَّما وماذا عليه لو أَجاب مُتيَّما

وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه محدَث !

وقول أبى نواس :

لمن دِمَنٌ تزداد طيبَ نسيم على طول ما أَقْوَتْ وحسنَ رسوم[2]

---

(١) العمدة – ١ – ١٤٣ .

(٢) أقوت الدار وقويت : خلت .

وقوله :

دع عنك لومى فإنَّ اللومَ إغراءُ   وداونى بالتى كانت هى الداءُ

وقول إسحاق الموصلى :

هل إلى أن تنام عينى سبيلُ   إنَّ عهدى بالنوم عهد طويل

وقد قيل فيه أيضًا : إنه أحسن ابتداء ابتدأ به مولَّد .

وقول أشجع السلمى فى مدح الرشيد :

قصر عليه تحيّة وسلامُ   خلعت عليه جمالَها الأَيامُ

وفى رواية :

. . . .   نشرت عليه جمالها الأَيام

وكان أبو تمام فخم الابتداء ، له روعة وعليه أبَّهة، والغالب عليه نحت اللفظ ، وجَهارة الابتداء ! كقوله :

الحقُّ أَبلجُ والسيوفُ عَوارِى   فحَذارِ من أَسد العرين حَذارِ

وقوله :

يا رَبْعُ لو رَبَعُوا على ابن هُمومِ[1]   . . . .

وقوله :

لا أنتِ أَنتِ ولا الديارُ ديارُ   خفَّ الهوى وتقضَّت الأَوطارُ

وكان الآمدى يفضل ابتداءات البحترى جدًّا ، ومنها :

ما على الرَّكْب من وقوف الرِّكاب   فى مغانى الصِّبا ورسْم التَّصابى

---

(١) ربعوا : وقفوا وانتظروا وتحبسوا .

وقوله :

ضَمانٌ على عينيْك أَنِّىَ لا أَسلو . . . .

وقوله :

بودّىَ لو يهوَى العذولُ ويعشَق ليعلمَ أَسبابَ الهوى كيف تعلَق

وقول ابن المعتز — مع تناسب القسيمين — :

أَخذتْ من شبابىَ الأَيامُ وتولَّى الصِّبا عليه السلامُ

وقول ابن هانئ — مع بديع الاستعارة — :

بسم الصباحُ لأَعين النُّدَماء وانشقّ جيبُ غِلالة الظلماء

وقول التهامى :

حازك البين حين أَصبحت بدرا إن للبدر فى التنقل عذرا

وقول الخازن — يهنئ الصاحب بن عباد بسبطه ، الشريف أبى الحسن عباد الحسنى — :

بشراك قد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد فى أُفْق العلا صعدا

مطالع قبيحة :

لما أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان :

خفَّ القَطينُ فراحوا منك أَو بكَروا[1]

تطيَّر عبد الملك ، فقال : لا ، بل منك !

فجعله الأخطل :

---

(١) خف القطين : أهل الدار المقيمون ، وخفوا : ارتحلوا مسرعين .

خفّ القطين فراحوا اليوم أو بكروا

وأنشد ذو الرمّة عبد الملك قصيدته التى أولها :

ما بال عينك منها الماءُ ينسكب كأنه من كُلىً مَفْرِيَّة سَرَب[١]

وكانت عينا عبد الملك تدمعان دائمًا لشعرة فيهما ! فغضب عليه ونحّاه ، وقال له : وما سؤالك عن هذا يا بن الفاعلة – لا يكنى ! –

وأنشد جرير عبد الملك قوله :

أَتَصْحو أَم فؤادُك غيرُ صاحٍ عشِيَّةَ هَمَّ صحبُك بالرَّواح

فقال له : بل فؤادك يا بن اللّخناء !

وأنشد أبو النّجم العِجْلى الرجّاز، هشام بن عبد الملك فى وصف الشمس :

صفراءُ قد كادتْ ولما تَفْعلِ كأَنَّها فى الأُفْق عينُ الأَحول

وكان هشام أحول ، فأمر به فسُحِب ، ووُجِئَ عنقه[٢] ! وأخرج من الرّصافة .

ودخل بعض الشعراء على زياد بن أبيه ، فاستنشده من شعر الأعشى ، فلم يفتح عليه لسوء حظه ، إلا بقوله :

رَحَلَتْ «سُمَيَّةُ» غُدْوةً أَجمالَها غَضْبَى عليك فما تقول بدالها

فقطّب زياد وجهه ! لأن أمّه كانت تسمّى بهذا الاسم ، وكان يُعيّر بها!

فلم يدخل عليه الشاعر بعد ذلك .

---

(١) كلى مفرية : الكلى من المزادة : رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة . وسرب – كسبب –: سائل .قال المبرد : وبيت ذى الرمة يختار فيه الفتح ، لأنه : اسم ، ومعناه : الماء السائل وخصه بعضهم بالسائل من المزادة . وعن أبى عبيدة : يروى بالكسر : من سربت المزادة بالكسر فهى سربة : سالت .

(٢) وجأ عنقه : ضربه ودقه .

ومدح أبو نواس الفضل بن يحيي البرمكى بقصيدة أولها :

أَرَبْع البِلَى إن الخشوعَ لبادى   عليك وإنِّى لم أَخُنْك ودادى

فتطيَّر الفضل وأنكر عليه ذلك (١) !

فلما انتهى إلى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فُقِدْتمو   بنى برمك من رائحين وغادى

استحكم تطيُّره !

وقال لأبى نواس : لقد نعيْت إلينا أنفسنا !

فيقال : إنه لم يمر أسبوع حتى أوقع بهم الرشيد !

ومثله قوله :

يا دار ما فَعلت بك الأَيام   لم تبق فيك بشاشة تُستام (٢)

ولما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان — وكان من أفخم القصور — جمع أهل بيته وأصحابه ، وأمر أن يلبس كلهم الديباج . وجلس على سريره المذهب! فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم ! .

ثم استأذنه إسحاق الموصلى فى الإنشاد . فأذن له ، فأنشده شعراً ما سمع الناس أحسن منه فى صفته ، وصفة المجلس ! إلاّ أن أوله كان :

يا دار غيَّرك البلَى ومَحاكِ   ياليت شعرى ما الذى أَبلاك

فتطيّر المعتصم ، وتغامز الناس ، وعجبوا : كيف ذهب هذا على إسحاق ، مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك ؟ !

قال الراوى : فأقمنا يومًا وانصرفنا ، فما عاد منّا اثنان إلى ذلك المجلس !

---

(١) تطير به ومنه : تشاءم به .

(٢) تستام : تطلب .

ثم خرج المعتصم إلى مدينة « سُرَّ من رأى » وخرب القصر[١] !

وقول أبي تمام في مفتتح قصيدة مدح :

تَجَرَّعْ أَسى قد أَقفر الجرَع الفَرْدُ[٢] . . .

وقد أوقعه في هذا المكروه تتبعه التجنيس بين تجرع والجرع !

وقال المتنبي أول لقاء كافور الإخشيدي :

كفى بك داءً أن ترَى الموتَ شافياً   وحسبُ المنايا أَن يكنَّ أَمانيا

وأنشد ابن مقاتل الضرير ، « الداعي إلى الحقّ العلوي » في مطلع أرجوزة :

موعد أَحبابك بالفرقة غدُ

فتطيّر الداعي ! وقال له : بل موعد أحبابك ! ولك المثل السَّوْء !

ودخل عليه في يوم مهرجانه ، فأنشده :

لا تَقُلْ بُشْرَى ولكن بُشْريان   غُرّةُ الداعي ويوم المِهْرَجان

فتطير الداعي ! وأمر ببطحه ، وضربه خمسين عصا ، وقال : إصلاح أدبه ، أبلغ من ثوابه !

والشعراء في كل ذلك لا يخاطبون الناس وإنما يخاطبون أنفسهم بطريق التجريد المعروف عند البلغاء ، والمخاطبون – بفتح الطاء – يعرفون ذلك تمام المعرفة ، ولكنهم لا يستطيعون احتمال هذه المواجهة بما يشبه الشتم حيناً ، والتَّعريض حيناً ، أو يثير التشاؤم في نفوسهم ، وبخاصة إذا كانوا من ذوي الرياسات المدلّين بأقدارهم ! والمشفقين من أحداث الزمان ! .

وإنما يؤتى الشاعر في هذه الأشياء – كما يقول ابن رشيق – إمّا من غفلة الطبع ، أو من استغراق في الصنعة ، وشغل هاجس بالعمل ، يذهَب مع

---

(١) الموشح – ٣٠١ .

(٢) الجرع – كسبب – من معانيه : الرملة الطيبة لا وعوثة فيها .

حسن القول أين ذهب .

والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها، وينظر فى أحوال المخاطبين ، فيقصد محابّهم ، ويميل إلى شهواتهم ، وإن خالفت شهوته ، ويتفقّد ما يكرهون سماعه ، فيتجنب ذاك[١] .

حسن المقطع :

أن يراعى حسن المقطع ، ويسمى أيضًا : حسن الخاتمة — أى ختام القصيدة — فإنه لا يقلّ أهمية عن المطلع ! بل ربما فاقه ! لأن به يكون الحكم على القصيدة !

وهو أشبه بالحلواء التى يختم بها الطعام ، فإن لم تكن حلواء فى ختام الطعام كان خِداجا[٢] كما يقول الحكماء !

وفى القرآن الكريم « ختامه مسك » فليحذر الشاعر سوء الخاتمة ، فإنما الأعمال بخواتيمها — كما جاء فى الأثر — .

وقد كان شبيب بن شيبة يقول : الناس موكّلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة المقطع وبمدح صاحبه[٣] .

ويقول ابن رشيق : وخاتمة الكلام أبقى فى السمع ، وألصق بالنفس ؛ لقربِ العهد بها ، فإن حسنت حَسُن ، وإن قبحت قبح[٤] .

مقاطع حسنة :

ومن المقاطع الحسنة قول أبى تمام فى الاعتذار :

فإن يك ذنب عَنَّ أو تلك هفوةٌ   على خطأ منى فعذرى على عمد[٥]

---

(١) العمدة — ١ — ٤٩ .

(٢) الخداج — ككتاب —: الناقص .

(٣) البيان والتبيين — ١ — ١٠٦ .

(٤) العمدة — ١ — ١٤٧ .

(٥) عن — بتشديد النون — : عرض .

وقول الرستُمى :

بقيت مدَى الدنيا وملكُك راسخٌ وظلك ممدود ، وبابك عامر

وقول الخُوارَزْمىّ :

بَقيت لنا تجود مدَى الليالى فإنك ما بقيتَ لنا بقينا

وقول الطغرائى فى نكبة أحد الرؤساء :

وقد زاد طيبًا ذكركُم مذ مُحِنْتم كذا العُود إن شبّتْه نارٌ تضوّعا[1]

وقوله فى اقتناء الأصدقاء :

تريد مهذَّبا لا عيبَ فيه وهل عُودٌ يفوح بلا دخان

وقول التهامى فى رثاء ابنه :

إذا ما تولَّى ابنى وولَّت شبيبتى وولَّى عَزائى فالسلامُ على الدهر

وقول ابن خفاجة يصف معركة ظافرة :

فانجاب ليلُ الخطب عن أُفُق الهدى وتَطلَّع الفتح المبينُ صَباحا

وقول ابن زيدون فى الحنين والشكوى :

عليك منا سلامُ الله ما بَقيتْ صبابةٌ بلكِ نُخْفِيهَا فَتُخْفينا

وقوله فى هدية عنب إلى جدّه :

فأَنْعِمْ بالقَبول فرُبَّ نُعْمَى أَعَدْتَ بها دُجَى ليلى نَهارا

وقد عرف المتنبى بحسن المطالع والمقاطع معا ، وقد مرّت بعض مطالعه .

أما مقاطعه الجياد ، فمنها فى قصيدة مدح :

---

(١) محن : أصيب بمحنة .

يَفْنَى الكلامُ ولا يُحيط. بفضلكم   أيحيط. ما يفنَى بما لا ينفَد

* * *

فإن تفق الأنام وأنت منهم   فإنَّ المسكَ بعضُ دم الغزال

* * *

محبُّك حيثما اتَّجهَتْ رِكابى   وضَيْفُك حيثُ كنت من البلاد

* * *

ولو جاز الخلود خلدت فردًا   ولكن ليس للدنيا خليل

* * *

كلُّ آبائه كرام بنى الدنيا   ولكنه كريم الكرام

* * *

لقد حَسُنت بك الأَوقاتُ حتَّى   كأَنَّك فى فمِ الزمن ابتِسام

وأُعْطِيتَ الَّذى لم يُعْطَ. خَلْقٌ   عليك صلاةُ ربِّك والسلام

* * *

قد شرَّف الله أَرْضاً أَنتساكنُها   وشرّف الناسَ إذ سوّاك إنساناَ

وقوله فى الهجاء :

فلو كنت امرأً يُهْجَى هجوْنا   ولكن ضاقَ فِتْرٌ عن مسير

وقوله فى تعزية لسيف الدّولة عن ابنه :

وما الدهرُ أَهلٌ أَن تؤَمَّل عندَه   حياةٌ وأَن يُشْتاق فيه إلىالنَّسْل

وقوله فى تهيّب جنود سيف الدولة لقاء الروم فى بعض الغزوات لكثرتهم :

وما الخوفُ إلاَّ ما تخوّفه الفتى   وما الأَمن إلاَّ ما رآه الفتى أَمْنا

وفى عتابه لسيف الدولة :

هذا عِتابُك إلاَّ أَنه مِقَةٌ   قد ضُمِّن الدرَّ إلاَّ أَنه كَلِمُ

وقوله :

وإن كان ذنبي كلَّ ذنب فإنَّه   محا الذنبَ كلَّ المحو من جاءَ تائباً

وقوله فى مرضه :

شَفاكَ الذى يَشْفى بجودك خَلْقَه   فإنَّك بحر كلُّ بحر له بعض

وقوله — وقد عوفى مما كان به — :

وما أَخُصُّك فى بُرْءٍ بتهنئة   إذا سلمت فكلُّ الناس قد سلموا

وقول شوقى فى مدح الرسول الكريم « الهمزية النبوية » :

خيرُ الوسائل من يقعْ منهم علَى   سبب إليك فحسبىَ « الزَّهراءُ »

وقوله فى انتحار الطلبة :

إنَّما يسمَح بالرُّوح الفتى   ساعةَ الرَّوْع إذا الجَمْعُ اشْتَجرْ(١)
فهناك الأَجرُ والفخر معاً   مَنْ يَعِشْ يُحْمَدْ ومن ماتَ أُجِر

وقوله فى أبى الهول :

تحرَّكْ أَبا الهول هذا الزما   نُ تحرَّكَ ما فيه حتى الحجَرْ

وقوله فى مملكة النَّحل :

ما اقترضتْ من بَقْلةٍ   أَو استعارتْ زَهَرَهْ
أَدَّتْ إلى النَّاس به   سُكَّرةً بسُكَّرهْ

وقوله فى تكريم أحمد بك حسنين ، بعد قيامه برحلته المعروفة فى الصحراء الكبرى :

ولو جَزَتْك الصَّحارى جئتَنا مَلِكا   من الملوك عليك الريشُ والوَدعُ

---

(١) اشتجروا : تخالفوا وتنازعوا . والروع : المراد : الحرب .

وقوله في تكريم واصف باشا غالى[١] :

وإلى الله من مشَى بصليب في يديه ومن مشى بهلال

و « شوقى » محسن فى مطالعه ومقاطعه !

(١) قال شارح ديوانه : ولعل هذه القصيدة إرهاص إلى اتحاد عنصرى هذه الأمة . الشوقيات — ٢ — ٢٣٤ .

الفصل الخامس عشر

تجنب الزحافات الردئة

أن يتجنب الزِّحافات الرديئة ، التى تَشين الوزن ، وتقبّح النّغم ، وتخيّل للأذن الموسيقية : أن البيت مكسور ، وما هو بمكسور من حيث العروض !

والزحاف : ما يلحق أى جزء كان من الأجزاء السبعة التى جعلت موازين الشعر : من نقص أو زيادة ، أو تقديم حرف أو تأخيره ، أو تسكينه ، ولا يكاد يسلم منه شعر !

ومن الزحاف : ما هو أخفّ من التّمام وأحسن ، كالذى يستحسن فى الجارية : من التفاف البدن ، واعتدال القامة ، والقبَل[1] اليسير ، والفلَج[2] واللُّثغة ، وكان الخليل بن أحمد يستحسنه فى الشعر إذا قلّ منه فى البيت والبيتين ، فإذا توالى وكثر فى القصيدة سمج ! مثال ذلك « مفاعيلن » فى عروض الطويل التام ، تصير « مفاعلن » فى جميع أبياته . وهذا هو « القبض » وكل ما ذهب خامسه الساكن فهو مقبوض . ويقول إسحاق بن يونس : أهون عيوب الشعر الزحاف ، وهو أن ينقص الجزء من سائر الأجزاء ، فمنه ما نقصانه أخفى ، ومنه ما هو أشنع ، وهو فى ذلك جائز فى العروض كقول خالد بن زهير الهذلى لخاله أبى ذؤيب الهذلى :

لعلك إما أمُّ عمرو تبدلتْ سواك خليلاً شاتمى تستجيرها

فنقص ساكنًا بعد كاف سواك . وهو نون « فعولن » ومن أنشده « خليلا سواك » كان أشنع .

---

(١) القبل – كسبب – : مثل الحول أو أحسن منه .

(٢) الفلج فى الأسنان – كسبب – : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات .

و « فاعلن » — فى عروض البسيط التام ، وضربه — يصير « فَعِلُن » وذلك هو الخبن ، وكل ما ذهب ثانيه الساكن فهو مخبون .

و « مفاعلتن» — فى عروض الوافر التامّ وضربه ؛ حذفوا منه التاء والنون ، وأسكنوا اللام؛ فصار « مفاعل »، فخلفه « فعولن » وهذا هو القطف ، وليس فى الشعر مقطوف غيره .

ويخفّ على المطبوع أبداً ؛ أن يجعل مكان « مستفعلن » فى الخفيف « مفاعلن » أو على الأصح « متفعلن » يظهر له أحسن .

ومن الزّحاف : ما يحتمل على كره كالفدَع والوكَع والكزَم[1] ، فى بعض الحسان ،ومثاله فى الشعر كثير ، وكفاك قول امرئ القيس :

وتعرف فيه من أَبيه شمائلا ومِن خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا وبِرّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

فهذا أجمع العلماء بالشعر : أنه ما عمل فى معناه مثله ، إلاّ أنّه على ما تراه من الزحاف المستكره !

حكى ذلك أبو عبيدة .

ومنه قبيح مردود لا تقبل النفس عليه ! كقبح الخَلْق ، واختلاف الأعضاء فى الناس ، وسوء التركيب ، مثاله قصيدة عبيد بن الأبرص المشهورة التى أولها :

أقفر من أهله ملحوب . . . . . .

فإنها كادت تكون كلاماً غير موزون بعلّة ولا غيرها ، حتى قال بعض الناس : إنها خُطبة ارتجلها ، فاتّزن له أكثرها ! وفيها أبيات قد خرجت عن العروض ألبتة ، وقبّح ذلك جودة الشعر ، حتى أصاره إلى حدّ الردىء منه ، فمن ذلك قوله :

---

(١) الفدع : عيب من عيوب الجسم له معان كثيرة ، منها : المشى على ظهر القدم . والوكع : إقبال الإبهام على السبابة من الرجل . والكزم : قصر فى الأنف والأصابع .

والحىّ ما عاش فى تكذيب — طول الحياة له تعذيب

ومثله قوله أيضًا :

أَلا لله قوم ولدت أختُ بنى سَهْم — هشام وأَبو عبد مناف مِدْرَه الخَصْم

ويسمّونه الرَّمَل — كسبب — .

والرمل عند العرب : كلّ شِعر ليس بمؤلّف البناء ، ولا يجدون فيه شيئًا ، إلاّ أنه عيب !

قال إسحاق : فإن قيل : كيف يستحسن وهو عيب ؟

قلنا : قد يكون مثل هذا الحوَل واللّثَغ فى الجارية ! يُشتَهى القليل منه ، فإن كثر هَجُن وسُمج ! وكالوضَح فى الخيل يشتهى ويستظرف خفيفه ، كالغُرّة والتحجيل ، فإذا فشا وكثر ، كان هُجْنة ووهْنا !

قال : وخفيف البلَق يحتمل .

ثم قال : ولم أر أبلق سابقًا .

ومن الزحاف المعيب كالرّمَل أيضًا : التخليع .

والتخليع [١] : أن يكون قبيح الوزن قد أفرط قائله فى تزحيفه ، وجعل ذلك بِنْيةً للشعر كله ، حتى ميّله إلى الانكسار ، وأخرجه من باب الشعر الذى يعرف السامع له صحة وزنه أول وهلة ! فإنّ ما جرى هذا المجرى من الشعر ، ناقص الطلاوة ، قليل الحلاوة ! وذلك كقول الأسود بن يَعفر :

إنَّا ذممنا على ما خيّلتْ — سعدَ بن زيد وعمرا من تميم

وضبَّة المشترِى العارَ بنا — وذاك عمّ بنا غير رحيم

ونحن قوم لنا رِماح — وثروة من مَوالٍ وصميم

لانشتكى الوَصْمَ فى الحرب ولا — نئنّ منها كتأْنان السّليم [٢]

---

(١) نقد الشعر — ٦٩ « ط الجوائب » .

(٢) الوصم : العيب والعار . والسليم : اللديغ ؛ كأنهم تفاءلوا له بالسلامة .

ومثله قول عروة بن الورد :

يا هند بنت أَبِى ذراع أَخلفتِنى ووَتَرْتِنِى عشْقى
ونكحت راعىَ ثَلَّة يثمِّرها والدهرُ فائتُه بما يُبْقى[١]

وإنَّما يستحبّ من الترحيف ما كان غير مُفْرِط ، أو كان فى بيت أو بيتين من القصيدة، من غير توال ولا اتّساق ولا إفراط يخرجه عن الوزن، مثلما قال متمِّم بن نويرة فى قصيدته :

وفقدبنى أمّ تَداعَوْا فلم أَكن خِلافَهم لأَستكين وأَضْرعا[٢]

فأما الإفراط والدّوام فقبيح[٣] !

وصفوة القول: أن نقص البيت ببعض الزّحافات خير من تمامه ؛ كجعل « متفعلن » فى « الخفيف » بدل « مستفعلن » التى يظهر معها البيت كأنه مكسور !

ولا يستطيع تمييز الزحاف اللطيف من الشنيع ، إلا الشاعر ذو الذوق السليم والطبع القويم ، والأذن المرهفة الموسيقية !

ورحم الله الأصمعى حيث يقول : الزحاف فى الشعر كالرخصة فى الفقه : لا يُقدم عليها إلاّ فقيه !

---

(١) الثلة – كفلة – : الجماعة من الناس والغنم .
(٢) خلافهم : بعدهم .
(٣) الموشح – ٨٢ – ٨٣ .

الفصل السادس عشر

اختيار الألفاظ الشعرية

يجب على الشاعر أن يختار من الألفاظ ما هو أخلق وأشكل بالشعر؛ فممَّا لا خلاف فيه: أنه ليست كل كلمة تستعمل في النثر تصلح في الشعر.

وفي الشاعر حاسَّة خاصة، تفرز له الألفاظ تلقائيًّا، وتميِّز بعضها من بعض، وتقدم له منها ما يوافق المزاج الشعري من غير تعب ولا نصب! وبخاصة إذا كان مُرتاضا، هادئ النفس، مستريح الخاطر، ساكن الجأش.

ولكنه في بعض الأحيان قد يُغْلب على أمره لسبب ما، فيرضى بعض الألفاظ التي يبرأ منها الشعر، فيعاب عليه ذلك!

فمثلا القلب والفؤاد والكبد والسَّحْر [1] والنحر والجيد والترائب والصدر والثغر والثنايا والريق من ألفاظ الشعر! بخلاف المخ، والحلق والأضراس والأسنان والمعدة والبطن، والأمعاء والمصران والمرارة والطِّحال، وقد قالوا عن الطحال إنه ما دخل في كلام إلا أفسده!.

والورد والنسرين والنرجس والريحان والآس والسَّوسَن والياسمين من ألفاظ الشعر بخلاف النَّعْنَع والنَّعناع.

والتفاح والرّمان، والتين والعنب، والتَّمر؛ بخلاف المشمش والخوخ والبلح والخيار والبطّيخ.

وقد أخذ مسلم بن الوليد على أبي العتاهية قوله:

رويدك يا إنسان لا أنت تَقْفِز [2].

---

(١) السحر — بفتح السين وضمها وسكون الحاء —: الرئة، وقد تحرك الحاء كنهر ونهر.

(٢) قفز يقفز: وثب من باب ضرب.

وقال : ما خرجت « تقفز » من فم شاعر محسن قط ! .

ومن ذلك أنهم عدوا الكوب والأرض من ألفاظ الشعر ؛ بخلاف جمعهما وهو الأكواب ، والأرضُون .

وعدوا الآجرّ والقِرميد ألفاظًا غير شعرية .

وهناك ألفاظ عليها مسحة دينية أخرجوها من ألفاظ الشعر !

فمما أنكر على أبى العتاهية قوله فى « عُتْبة » جارية « الخيزُران » التى كان يتعشّقها قوله :

إنى أَعوذ من التى شَغَفتْ منّى الفؤادَ بآية الكرسِى

وآية الكرسى يهرب منها الشياطين ، ويحترس بها من الغِيلان ، كما رُوى عن ابن مسعود فى ذلك .

ولما أنكر الرشيد على إسحاق الموصلى طعنه على أبى العتاهية فى شعره ، قال : يا أمير المؤمنين ، هو أطبع الناس ، ولكنه ربّما تحرّف ! ! أىُّ شىء من الشعر قوله ؟ ! :

هو اللهُ هو اللهُ ولكن يغفر اللهُ

ولما أنشد عبدُ الله بن قيس الرقيات ، عبد الملك بن مروان — بعد أن صفح عنه وأمّنه — قوله :

اسمعْ أَمير المؤمنين لمدحتى وثَناءِها
أَنت ابن معتلج البطا ح كُدِيّها وكَدائها[1]
ولبطن عائشة التى فضَلتْ أُرُومَ نسائها

لم تعجب عبد الملك كلمة البطن فى الشعر والمديح ، وإن كان يرويها رجال الأنساب ، وآثر عليها كلمة النّسل .

---

(١) كدى — بضم وكسر وياء مشددة — : جبل بأسفل مكة . وكداء — كسماء — : اسم لعرفات ، أو جبل بأعلى مكة دخل النبى — صلى الله عليه وسلم — مكة منه .

ولما أنشد الراعى ، عبد الملك بن مروان قصيدته ؛ فبلغ قوله :

أَخليفة الرحمن إِنَّا معشر حنفاءُ نسجد بكرةً وأَصيلا
عرب نرى لله فى أَموالنا حقَّ الزكاة مُنزَّلا تنزيلا

قال له عبد الملك : ليس هذا شعراً ! هذا شرح إسلام، وقراءة آية[1] !

ومثل هذا : أن الحارث بن خالد المخزومى أنشد ابن عمر قوله :

إِنى وما نحروا غداة منى . . . .

فلما بلغ إلى قوله :

لعرفت مغناها بما احتملت منى الضلوع لأَهلها قبلُ

قال له ابن عمر : قل : إن شاء الله !

فقال الحارث : إذن يفسد الشعر يا أبا عبد الرحمن !

فقال ابن عمر : لا خير فى شىء تفسده إن شاء الله[2] ! ولكل وجهة !

ولابن الأثير رأى غريب فى ألفاظ الشعر والنثر ! فهو يرى أن كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنثور من الألفاظ ، يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم .

وليس كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم ، يسوغ استعماله فى الكلام المنثور .

ثم يقول: وذلك شىء استنبطته واطّلعت عليه؛ لكثرة ممارستى لهذا الفن ، ولأن الذوق الذى عندى دلّنى عليه، فمن شاء فليقلّدنى فيه ، وإلاّ فليدمن

(١) الموشح ٢٦٠ .
(٢) زهر الآداب – ١ – ٢٩٠ .

النظر حتى يطلع على ما اطلعت عليه ، والأذهان فى مثل هذا المقام تتفاوت[١] !

وهذا القول ليس صحيحاً على إطلاقه ، وإن أعجب به ابن الأثير كإعجابه بكل ما ينطق به !

فبعض الكلمات يحسن فى الشعر وفى النثر معا .

وبعضها يحسن فى النثر لا فى الشعر ، وبعضها لا يحسن فيهما . والكلمات التى نسمّيها غير شعريّة إنما تقبح فى الشعر وحده لا فى النثر غالبا .

وأما الكلمات التى تحسُن فى الشعر ؛ فمن الصعب أن نسلّم بأنها لا تصلح للنثر ، كما يقول ابن الأثير ، اللهم إلاّ إذا كانت موضع ضرورة ، والنثر لا موضع فيه للضرورات ، إذ لنا منادح عنها فيه !

وأغرب من ذلك قوله : إن كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنثور من الألفاظ ، يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم ، فهو فى ذلك يخالف الشعراء جميعاً ، والذى أوقعه فى هذا الوهم أنه ناثر غير شاعر ! وحسبنا فى ذلك قول ابن رشيق — وهو ناثر وشاعر وناقد — : للشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مألوفة ، لا ينبغى للشاعر أن يعدوها ، ولا أن يستعمل غيرها ، إلاّ أن يريد شاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمى ؛ فيستعمله فى الندرة ، وعلى سبيل الخَطْرة ، كما فعل الأعشى قديماً ، وأبو نواس حديثاً ، فلا بأس بذلك ، والفلسفة وجرّ الأخبار ، باب آخر غير الشعر[٢] .

---

(١) المثل السائر — ٦٥ .

(٢) العمدة — ١ — ٨٣ .

الفصل السابع عشر

إنشاد الشعر من غير قائله

إذا كان منشد الشعر غير القائل له ، فعليه أن يلبس نفس الشاعر ، ويحمل مشاعره ، ويتشرّب عواطفه ، وينغمر فى تجاربه ، حتى يصير كأنه هو !

والإنسان فيه قدرة عجيبة على أن يتقمّص روح غيره ، ويترجم عن وجدانه ، وينطق عن لسانه !

وفى ذلك يقول أبو أيوب المدائنى عن الزبير : حدّثنى « ظبية » قالت : سمعت عبد الله بن مسلم بن جندب ؛ ينشد زوجى : قول قيس بن ذَريح[1] :

إذا ذُكِرتْ «لُبْنَى» تـأَوَّهَ واشتكَى ... تـأَوّهَ محمومٍ عليه البلابلُ[2]

يَبيت ويُضْحِى تحتَ ظِلِّ مَنيّةٍ ... به رَمَقٌ تبكى عليه القبائل

قتيل للبنى صدَّع الحبُّ قلبَه ... وفى الحبّ شُغْلٌ للمحبين شاغل

قال : فصاح زوجى : أوْه ! وَاحَرَباه[3] !

أو قال : واسلَباه ! وهى بمعنى واحرباه .

ثم أقبل على ابن جندب ، فقال : ويلك ! أتنشد هذا الشعر كذا ؟ !

قال : فكيف أنشده ؟

قال : لم لا تتأوه كما يتأوه ! وتشتكى كما يشتكى ؟ !

---

(١) قيس بن ذريح : هو المعروف بقيس لبنى ؛ وقصته معها من المآسى الصادعة للأكباد !

(٢) البلابل : جمع بلبلة ، وهى شدة الهم والوساوس كالبلبال — بفتح الباء فيهما — .

(٣) واحرباه : — بفتح الراء — من حربه : إذا سلبه .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصادر والمراجع مرتبة بحسب ورودها

الكتاب	المؤلف
الصحاح	: الجوهرى
القاموس المحيط	: الفيروزاباذى
لسان العرب	: ابن منظور
شرح سقط الزند	: « ط . الدار القومية »
ديوان ابن حيوس	: « ط . المجمع العلمى بدمشق »
ديوان حافظ إبراهيم	: « الطبعة الأولى »
المجلة المصرية	: سنة ١٩٠٩
مهرجان حافظ	: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب . . .
وفيات الأعيان	: ابن خلكان
العمدة	: ابن رشيق « ط . الخانجى »
أمالى المرتضى	: « ط . الخانجى»
أمالى القالى	: « ط . « المطبعة الأميرية»
ديوان من دواوين	: العقاد
صرخة فى واد	: محمود غنيم
قواعد النقد الأدبى	: كرمبى ترجمة الدكتور محمد عوض
مسائل فلسفة الفن المعاصرة	: جويو. ترجمة الدروبى
ديوان المتنبى	
ديوان ابن زيدون	
ديوان ابن الخياط الدمشقى	: «ط المجمع العلمى بدمشق»
ديوان مهيار	
ديوان صردر	
الشوقيات	
ديوان خليل مردم	
ديوان محمد عبد المطلب	
ديوان الرصافى	
ديوان الزهاوى	
ديوان صادق الرافعى	
ديوان محمد الأسمر	
النظرات	: المنفلوطى
ديوان أبى فراس الحمدانى	
يتيمة الدهر	: الثعالبى
ديوان حسان بن ثابت	
خمسة أيام فى دمشق	: على الجندى
الموشح	: المرزبانى
طبقات الشعر والشعراء	: الجمحى
ديوان النابغة	
النابغة الذبيانى	: عمر الدسوقى
الذوق الأدبى	: د. على الجندى
معاهد التنصيص	: العباسى
فصول التماثيل	: ابن المعتز
إنباه الرواة	: القفطى
أغانى الساسى	
تاريخ آداب اللغة العربية	: جورجى زيدان
ديوان المازنى	: « ط . المجلس الأعلى »
ديوان الزين	
البيان والتبيين	: الجاحظ
ديوان لبيد	
عيون الأخبار	: ابن قتيبة الدنيورى
هبة الأيام	: البديعى
ديوان أبى تمام	
المستطرف	: الأبشيهى
المنتخب من الكنايات	: القاضى الجرجانى
الكناية والتعريض	: الثعالبى
ديوان بشار	
ديوان الفرزدق	
شرح نهج البلاغة	: ابن أبى الحديد. تحقيق أبى الفضل إبراهيم

الكتاب	المؤلف
مقدمة ديوان ابن حيوس	خليل مردم
ديوان مسلم بن الوليد	
ديوان البحترى	
معجم الأدباء	ياقوت الحموى
أخبار البحترى	الصولى
مختارات من محاضرات الأدباء	« ط . وزارة الثقافة »
الصبح المنبى	يوسف البديعى
ديوان البارودى	
محاضرات الراغب	
التبيان	العكبرى
العقد الفريد	ابن عبد ربه
ذيل الأمالى والنوادر	القالى
الكتاب	سيبويه
ديوان أبى نواس	
سقط الزند	المعرى
ديوان عماد	
خواطر الخيال	كامل حجاج
ديوان الشريف الرضى	
مجلة الهلال	سنة ١٩٥٩ م
فى ظلال الثورة	محمود غنيم
الكامل . برغبة الآمل	المرصفى
نهاية الأرب	النويرى
نقد النثر	المنسوب لقدامة
أمراء البيان	كرد على
عصر المأمون	أحمد فريد رفاعى
أبو العتاهية	محمد برانق
صريع الغوانى	حسن علوان
مقدمة الإلياذة	البستانى
تاريخ النقد الأدبى	طه إبراهيم

الكتاب	المؤلف
أصول النقد الأدبى	أحمد الشايب
موسيقى الشعر	الدكتور إبراهيم أنيس
ديوان ابن الرومى	« ط . كامل كيلانى »
ديوان ابن نباتة	
نقد الشعر	قدامة
تزيين الأسواق	الأنطاكى
ديوان الصبابة	المغربى
الخصائص	ابن جنى
المزهر	السيوطى
ديوان ابن المعتز	
ابن قيس الرقيات	على النجدى ناصف
ديوان الأخطل	
البلاغة الغنية	على الجندى
الصناعتين	العسكرى
ديوان المعانى	العسكرى
اللزوميات	المعرى
ديوان الطغرائى	
المثل السائر	ابن الأثير
فن الأسجاع	على الجندى
الأوراق	الصولى
الإيضاح	الخطيب القزوينى
الخريدة	العماد الأصفهانى
بدائع البدائه	ابن ظافر الأزدى
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب	عبدالواحد المراكشى
ديوان التهامى	
شرح المفصل	ابن يعيش
ديوان امرىء القيس	
المعلقات السبع	
ديوان ابن خفاجة	

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس لأهم الموضوعات

الفصل الأول

الإنشاد ٩

النشيد فى اللغة و بيان ذلك . الإنشاد موهبة وتفصيل ذلك . حافظ إبراهيم شاعر المحافل . إنشاد حافظ ورأى النقاد فيه : مرثية حافظ لسعد زغلول . رأينا فيها . بيت زائف فى المرثية . الإخلاء الشعرى . الأعشى ، وأشجع السلمى ، ومروان بن أبى حفصة . حافظ، والعقاد ، وغنيم ، واتفاقهم فى معنى . الشعر الذى يحسن مسموعاً لا مقروءاً. وصف النقاد له. سرّ احتفال « حافظ » بالبلاغة الصّوتية . ما يجب على شعراء الإنشاد .

الفصل الثانى

الشعر ينشد ولا يقرأ ٢١

اللغة العربية لغة غنائية. اللغات القديمة تفوق الحديثة إيقاعاً وتنغيماً . اللغة العربية غنية بالقوافى المتناسبة. الشعر غناء، والشاعر مغنّ. أقوالهم فى ذلك . أجمل ما قيل فى تصوير الشاعر بأنه كطيور الغرد . الإنشاد فى العصر الحديث ، وبيان مراحله . الوعى الشعرى فى البلاد العربية . الشبه بين الأعشى والكاظمى و بولس غانم . الشعر يهتاجه الترنم .

الفصل الثالث

إنشاد الشاعر شعره ٣٤

الأصل فى الشعر أن ينشده صاحبه . أسباب ذلك . يجب على المغنى أن يفهم ما يغنيه . حرص الشعراء على إنشاد أشعارهم بأنفسهم . أمثلة لذلك . رأى الجاحظ فى إنشاد الشاعر شعره . طرب الرشيد لإنشاد الشعر .

مرثية دعبل الخزاعى لآل البيت ! بكاء المأمون لسماعها ، قصيدة للمازنى . . .
مثال من شعر الزين .

الفصل الرابع

تهيؤ الشاعر للإنشاد

اهتمام الشاعر بما يلفت إليه الأنظار . ماذا كان يصنع الشاعر الجاهلى إذا أراد الهجاء ؟ عبقرية لبيد المبكرة . تزيى الشعراء بزى الماضين . ما كان يلبسه بشار . الرشيد والعُمانى الراجز . المأمون وأبو تمام . إحداد أبى تمام على محمد بن حميد الطوسى ، وإنشاده قصيدته المشهورة فيه ! لبس الكوفية والعقال فى حال الإنشاد ، وأثر ذلك . ٣٩

الفصل الخامس

عادة الشعراء فى الإنشاد

لكل شاعر عادة عرف بها فى إنشاده . الخنساء . كعب بن زهير . أبو النجم العجلى . بشار بن برد . الأصمعى . تكبر بعض الشعراء على الإنشاد قائماً . الطرماح بن حكيم . الفرزدق . إجلال بعض الأمراء للشاعر عن أن ينشد قائماً . لا يصلح إنشاد الشعر فى حال الجلوس . لا معنى لتكبر الشاعر عن إنشاده قائماً . قبح إنشاد البحترى وقصته مع المتوكل العباسى . فخر العربى بمناقبه طبيعة فيه . تكبر المتنبى عن الإنشاد قائماً فى مجلس سيف الدولة ، ومخالفته عادته فى بلاط كافور الإخشيدى . دعبل الخزاعى و بعض الوزراء تفاوت الشعراء إنشاء وإنشاداً ، وبيان ذلك . أصوات الشعراء حسناً وقبحاً ! العنصر الإنسانى فى الصوت الجميل . الأصمعى . ذو الرمة . ٤٤

الفصل السادس

الشعراء المجيدون للإنشاد

الأعشى صناجة العرب . تعليل هذه التسمية . قبيلة بكر غنية بالشعراء. ٥٦

١٦٥

المعروفون بحسن الإنشاد فى العصر الأموى : وضاح اليمن . عباد العنبرى . أبو النجم العجلى .
المعروفون بحسن الإنشاد فى العصر العباسى : أبو نواس . محمد البيدق . أبو سعيد المخزومى .
المعروفون بحسن الإنشاد فى الأندلس : ابن زيدون . ابن حصن .
المعروفون بحسن الإنشاد فى العصر الحديث : حافظ إبراهيم . عبد المطلب . على الجارم . محمد الأسمر . محمود رمزى نظيم . محمد حمام . كامل الشناوى . أحمد عبد المجيد الغزالى . صفة إنشاد كل منهم . بولس غانم صناجة العصر الحديث . الشاعر « الرهيب » عبد الله شمس الدين . درجة الأصوات تناسب درجة الشعور . شواعر مصر . أثر الأنوثة فى الإنشاد . وصف شاعرة . شعراء وشواعر سورية : شفيق جبرى . عزيزة هارون . الدكتورة طلعت الرفاعى . هند هارون . نبيهة حداد .

الفصل السابع

شعراء لا ينشدون

أو كانوا ينشدون ، وكفوا عن الإنشاد ٧٣

أسباب امتناع بعض الشعراء عن الإنشاد . أبو عطاء السندى . الكميت بن زيد الأسدى . عاصم بن زيد المعروف بالمخشى . عودة اللسان بعد قطعه وفتيا الإمام مالك فى ذلك . أبو تمام الطائى وتمتمته وهجاؤه . الشريف الرضى لا ينشد حياء . امتناع « شوقى » عن إنشاد الشعر ، واختلاف النقاد فى سبب ذلك . إنشاد الجارم لمرثية شوقى فى إسماعيل صبرى . قيمة هذه المرثية ونفاستها . اعتذار حافظ عن شوقى فى عدم الإنشاد ورأينا فى ذلك . الترفع عن الإنشاد مع صغار الشعراء فى السن . الحسين الخليع . على الجارم . خليل مطران والإنشاد . ضعف العقاد ، وعلى الجارم ومحمود عماد عن الإنشاد أخيراً .

الفصل الثامن

عذوبة النغمة

أثر حسن النغمة فى الإنشاد. عجائب الصوت وتصرفه فى الوجوه المختلفة . قد يطرب الإنسان لما لا يفهمه . حاسة السمع وقيمتها . اللهجة هى التعبير المباشر عن العاطفة . رأى قدامة فى الإنشاد الحسن وتحسينه الشعر. الخطابة لا تحتاج إلى حلاوة النغمة كالشعر . حاجة الخطابة إلى جهارة الصوت . ٨٨

الفصل التاسع

حسن الهيئة والشارة

أناقة بعض الشعراء : أشجع السلمى. ابن ميادة . يزيد بن الطثرية . العباس ابن الأحنف . رأى بعض الهنود فى حسن سمت الشاعر . الفرق فى ذلك بين الشاعر والخطيب . رأى سهل بن هارون . مخالفتنا له . معسكر الكرم والبخل بين الشعراء فى العصر العباسى . عجائب أبى العتاهية فى بخله وتقتيره . ٩٥

الفصل العاشر

اختيار البحور المناسبة

مزية البحر الطويل والبسيط . أثر البحور فى الأداء والأسلوب. صعوبة بحر المديد . البحور الطويلة تحتاج إلى ثروة لغوية . صفة البحور ومزايا كل بحر . إيثار الشعراء بعض البحور على بعض . العلة فى تسمية البحور . الشاعر المطبوع يعتمد على أذنه لا على العروض . الاعتماد على العروض يقيد الشاعر المطبوع . ١٠٠

الفصل الحادى عشر

اختيار القوافى

القافية والوزن لا يسمى الشعر شعراً بدونهما . قيمة القافية عند شعراء العرب وشعراء الغرب . يجب على الشاعر تجنب عيوب القوافى . عناية الشعراء بتثقيف أشعارهم وفخرهم بذلك . القوافى المخنثة والتمثيل لها . الشعر البارد وإيراد أمثال له . أبرد ما قيل من الشعر ! الاستدعاء من عيوب القافية . أثره فى إضعاف الشعر . ثقل الشعر الوسط والغناء الوسط . ١١٣

الفصل الثانى عشر

تجنب حروف الروى الكريهة

حروف الروى الكريهة . تجنب الأقدمين لهذه الحروف . أشد هذه الحروف بشاعة . لماذا ينظم بعض الشعراء من هذه الحروف ؟ شعراء مولعون بالإغراب . أمثلة مختلفة للأشعار الكريهة الروى . غرام البارودى بلزوم ما لا يلزم . الحروف المكروهة تقبح فى النظم والنثر معا . كلمة للمعرى فى اختيار الحروف . ١٢٠

الفصل الثالث عشر

التصريع فى قصائد الإنشاد

اشتقاق التصريع . تعريفه عند البلغاء . مكانه المفضل من القصيدة . التصريع فى أثناء القصيدة ودلالته ومتى يحسن ؟ قيمة التصريع فى مفتتح القصيدة . التصريع أمس الحلى بالشعر . أمثال للتصريع الجيد . مدح الأدباء للتصريع . الشعراء يلتزمون التصريع فى القصائد الطوال . المقاطيع لا تحتاج إلى التصريع كالقصائد . التصريع فى الشعر المعاصر . ١٣٢

الفصل الرابع عشر

حسن المطالع والمقاطع

معنى المطلع والمقطع . قيمة المطلع وأثره فى نفس السامع . المطلع الجيد يصور جو القصيدة إجمالا . أقوال للنقاد فى اختيار المطلع . أمثال للمطالع الجيدة والرديئة . لماذا ينشد الشعراء المطالع القبيحة ؟ جودة مطالع أبى تمام والمتنبى . حسن المقطع . قيمته ومنزلته من القصيدة . أمثال للمقاطع الحسنة . بعض الأدباء يفضلون المقطع على المطلع . مقاطع المتنبى وشوقى . ١٣٧

الفصل الخامس عشر

تجنب الزحافات الرديئة

الزحافات الرديئة تشين الوزن . وتقبح النغم . اختلاف الزحافات حسناً وقبحاً . بعض الزحافات أحسن من التمام . أمثال للزحافات المختلفة . الرمل والتخليع من عيوب الوزن الرديئة . أثر الذوق فى تمييز الزحافات . ١٥٢

الفصل السادس عشر

اختيار الألفاظ الشعرية

ليست كل كلمة تصلح للشعر . للشاعر حاسة خاصة تفرز له الألفاظ . أمثال للألفاظ الشعرية وغيرها . الألفاظ الفقهية ليست من الشعر . مذهب ابن الأثير فى ألفاظ الشعر والنثر . ردنا عليه . رأى ابن رشيق فى ألفاظ الشعر . ١٥٦

الفصل السابع عشر

إنشاد الشعر من غير قائله

إذا كان المنشد غير الشاعر . فعليه أن يتشرب مشاعره . فى بعض الناس قدرة عجيبة على تقمص أرواح غيرهم . مثال طريف لإنشاد شعر الغير . ١٦٠

تم بحمد الله وكمل

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com



الشعراء وإنشاد الشعر

هذا الكتاب يعد الأول من نوعه بين الأسفار العربية ، ويزيد فى أهميته أنه صادر عن أستاذ جامعى شاعر مختص، درس الإنشاد فنًّا وعلماً ، وطبقه صناعة وعملا .

والكتاب يتألف من فصول عدة مترابطة ترابطاً وثيقاً ، يحمل كل منها زاداً ثميناً لقارئه . وهو فى جملته دراسة منهجية موضوعية تؤرخ لإنشاد الشعر من أقدم عصوره إلى عصرنا هذا، وترسم صوراً صادقة أمينة لشعراء الإنشاد قدامى ومحدثين ، رجالا ونساء، مع تقييم كل منهم تقييما صحيحاً فى ظل النقد الحصيف، والموازنة العادلة ، وإيراد الأمثلة والشواهد المونقة ، والاستهداء بعلم النفس وفلسفة الجمال ، والذوق الأدبى وفن الموسيقى والنغم.

هذا إلى ما تضمنه الكتاب فى ثناياه من نظريات دقيقة تثقف الشاعر ، وترهف إحساسه، وترقق عاطفته ، وتنأى به عن الخطأ فى الأداء وتعلمه كيف يستهوى سامعيه .

وفوق ذلك كله حوى الكتاب بحوثاً شائقة تتناول الأوزان والقوافى ومحاسنها وعيوبها ، وميزة كل بحر من البحور العروضية ، مع بيان قيمة البلاغة الصوتية ، وأثرها العميق فى تجويد الإنشاد ، وخلابة الإلقاء ، إلى غير ذلك مما لا يستغنى عنه شاعر ، ولا خطيب ولا أديب .

٢٠٥٢